التَواصلُ الإشَاريُّ وَعُمقُهُ التَأثِيريُّ فِي الشعرِ الأندلسيِّ

الكلمات المفتاحية: حديث الجسد للجسد، التواصل بالعيون ، البوحِ والمكاشفةِ

م٠د٠ محمد طه جواد ياسين الساعدي
جامعة ديالى / كلية التربية المقداد
dr.mohammed.taha@uodiyala.edu.iq

الملخص

ذَهَبتْ هذهِ الدِراسةُ إلى تَسليطِ الضَوءِ بإمعانٍ عَلى حَديثِ الجَسدِ للجَسدِ، أو التَواصلِ الصَامتِ ، الصائتِ ، غيرَ المَنطوقِ بَينَ جَسَدِ الحبيبِ وَحَبيبَتهِ ، وحَجمِ تَأثِيرهِ عَلى الآخَرِ، وَطَريقةِ توظيفهِ فِي الشِّعرِ الأندلسيِّ فِي عَصري المُرابطِينَ والمُوحدينَ ، لما لِهذا التَواصلِ من أهَميةٍ كَبِيرةٍ فِي التَعبِيرِ عَمَّا يَخْتَلِجُ فِي النَّفْسِ ، فهو يُحدثُ الطمأنينةَ ، ويخلُقُ جواً من الشعورَ بالرضا، ويعززُ الثقةَ في النفسِ ، خُصوصًا عِندما يَصْعِبُ التَواصلُ اللسَانِيُّ ؛ لِمانعٍ ما ، أو قد يُلْجَأُ إليهِ لأنَّ هذا التَواصلَ الإشاريَّ أكثرُ صِدقًا ، وتأثيرًا وتَحريكًا للمَشَاعِرِ مِنْ اللسَانِيِّ ؛ لأنَّ الخِطابَ المُباشرَ يُمكنُ أنْ يَتَصَنعَ المُتحدثُ فيهِ ، ويُخفي بِدَاخِلهِ ما لا يُرِيدُ إظهارَهُ ، مَعَ الأخذِ بالاعِتبَارِ أنَّ التوَاصلَ الإشَاريَّ يَحمِلُ أثرًا نَفسيًّا حَقِيقيًّا ، وَيَبُوحُ بهِ بِقوَّةٍ ، ممَّا يَجعَلُهُ أكثرَ تَأثِيرًا فِي نَفسِ المُتَلقي ، وَعَدم شَكِّهِ بِصِدقِ النَوايا ، وحَجمِ العِشقِ ، والشَوقِ ، والرَغبةِ بَينَ الطَرفينِ ، لذا حَاولتْ هذهِ الدِرَاسةُ كَشفَ اللِّثَامِ عَمَّا وَظَّفَهُ الشاعرُ الأندلسيُّ مِنْ إشَاراتٍ جَسَديةٍ تَتَكَلمُ بالكَثِيرِ عَمَّا يَختَلِجُ بِصَدرهِ ، وبِصَدرِ الطَرفِ الآخرَ مِنْ جَانبٍ نَفسيٍّ ، مَعَ عَدَمِ تَجَاهلِ مَعنى المَعنى في عَمَليةِ استنطَاقِ النَّصِ الشِّعريِّ ، بالإضافةِ لِتَسلطِ الضَّوءِ عَلَى الفِنونِ والأَلوَانِ البلاغِيةِ التي سَاهمَتْ فِي رَسمِ صُورَةِ الَطرَفِ الآخر الجَمَالِيةِ ، للوصولِ إلى أكبرِ عددٍ مِنَ الدَّلالاتِ ، والتَصَورَاتِ التي يَحملُها بِمَتنِهِ ، وحَجمِ التأثيرِ الذي فَرضَهُ عَلَى الطَرَفِ المُتَلَقي ، وَمَدى الاستجَابةِ لهَا ، والتَفَاعُلِ مَعَهَا .

المدخل

إنَّ التفاعلَ الاجتماعيَّ بينَ البشرِ هو الأساسُ الَّذي يقومُ عليهِ العمرانُ والتاريخُ، وبهِ تكونُ استمراريةُ الحياةِ البشريةِ، وهذا التفاعلُ الاجتماعيُّ هو العمليةُ التي يؤثرُ بها الناسُ بعضُهم على بعضٍ من خلالِ التبادلِ المشتركِ للأفكارِ والمشاعرِ وردودِ الفعلِ[١]، وهذا التفاعلُ له صورٌ متعددةٌ، أشهرُها التفاعلُ بالكلامِ، أو باللغةِ المنطوقةِ، وهذهِ الصورةُ لا تصلحُ في كلِّ المواضعِ، ولا تكونُ هي أداةُ الاتصال في كلِّ الأوقاتِ، فإنَّ هناكَ لغةً هي أصدقُ وأعمقُ أثرًا،

إنَّها ما تسمى بلغةِ الجسدِ، فإنَّهُ ((إذا أَخفى الكلامُ في طياتِه حقيقةَ المواقفِ، وأبعادَها، فإنَّ الجسدَ أقدرُ على استنباطِ كوامنِ الذاتِ الإنسانيةِ وبواطنِها، إذ كانتْ وما تزالُ حركةُ الجسدِ هي اللغةُ الوحيدةُ المشتركةُ بينَ البشرِ، والأيسرُ على الفهمِ، فالابتسامةُ – مثلا – توحي بسرورِ الذاتِ الإنسانيةِ، وعقدُ الجبينِ يعني امتعاضها، وهزُ الرأسِ قبولًا يشي بالرضا))(٢). وهذا يعني أنَّ ((للجسدِ لغتَهُ الخاصة، اللاهجةُ صوتًا، والمتحركةُ إيماءً، لغةٌ لها كلماتها وتراكيبها، وكل حركةٍ فيها كلمة، وكل صوتٍ فيهِ معنىً، وهذهِ الحركاتُ والأصواتُ، هي السلوكُ الجسديُّ الإنسانيُّ المنبعثُ من أعماقِ النفسِ، والمفصحُ عن طبيعةِ الفعاليةِ ضمنَ إطارِ البيئةِ؛ إذ إنَّ دوافعَ المرءِ الذاتيةِ، وحاجاتِهِ النفسيةِ، وانفعالاتهِ تجاه قضيةٍ ما، عوامل تحملهُ على القيامِ بسلوكٍ ما لتحقيقَ غرضٍ ما، سلوك هو لغةُ الجسدِ الصائتةُ، والصامتةُ))(٣).

إنَّ لغةَ الجسدِ ولدتْ مع مولدِ الإنسانِ، فهي ألصقُ بهِ من أيِّ لغةٍ أخرى، وهي أصدقُ تعبيرًا عنهُ من أيِّ لغةٍ أخرى، ولقد كانتْ هي ما يعتمدُ عليهِ الإنسانُ في التواصلِ مع أخيهِ الإنسانِ، إذ ((أنَّ القدرةَ على قراءةِ ميولِ الآخرين عن طريقِ سلوكيَّاتهم كانتْ هي نظامَ التواصلِ الأصليِّ الذي استعملَهُ البشرُ قبلَ تطورِ اللغةِ المنطوقةِ))(٤) .

إنَّ بإمكانِنا أنْ نستنتجَّ أنَّهُ حينَ كانتْ لغةُ الجسدِ التي هي مجموعُ حركاتِهِ ذاتِ الدلالةِ النفسيةِ والانفعاليةِ – حينَ كانتْ هي اللغةَ الوحيدةَ للتواصلِ بينَ البشرِ، كانَ التواصلُ أصدقَ وأعمقَ وأبلغَ، فنحنُ بإزاءِ لغةٍ صافيةٍ لا يُكدرُّ صدقَ دلالتِها شيءٌ، ولا يُشوِّشُ على فهمِها حقَّ الفهمِ شيءٌ، إذ أنَّ الإنسانَ في متابعتِهِ وتلقِّيهِ لتلكَ اللغةِ الصادرةِ عن الجسدِ لم تقاسمْها انتباهَهُ أصواتٌ ملفوظةٌ تحتملُ الصدقَ والكذبَ صارتْ هي اللغةَ الرسميَّةَ للإنسانِ فيما بعد.

إنَّ اللغةَ المنطوقةَ تفتقرُ في أكثرِ أحوالِها إلى العفويَّةِ، التي تتميزُ بها لغةُ الجسدِ، واللغةُ المنطوقةُ لا يكادُ يُفارقُها التكلُّفُ ، وهو يزيدُ فيها وينقصُ بحسبِ الموقفِ ، وأخلاقِ المتكلمِ النفسيةِ ، وعلاقتِه بالسامعِ أو السامعينَ ، وحالتِه وغاياتِه إلى غيرِ ذلكَ ، كما أنَّ عمليةَ الكلامِ تبدأُ بقرارٍ من المتكلمِ ، فهو إنْ شاءَ لم يتكلمْ ، وقد يُبقي في نفسِه أمورٌ كثيرةٌ مهمةٌ، ومشاعرُ نفسيَّةٌ مسيطرةٌ عليه لا يُوصلُ إليها ولا تُدركُ إنْ اعتمدَ على اللغةِ المنطوقةِ فقطْ، على عكسِ لغةِ الجسدِ، فإنَّ الإنسانَ لا يمكنُه أنْ يتجنَّبَها ، فإنَّها ((من أهمِ خصائصِ الإتصالِ عن طريقِ لغةِ الجسدِ ، أنَّه أمرٌ لا يمكنُ تحاشِيه، أو الهروبُ منهُ، فعندما لا يقولُ المرءُ شيئًا ويظلُّ صامتًا ، فإنَّهُ في الحقيقةِ لم ينقطعْ عن الاتصالِ، بل هو عكسَ نموذجًا من نماذجهِ، وإذا

استطاعَ أنْ يكفَ عن الكلامِ فإنَّهُ لا يستطيعُ أنْ يكفَ عن الحركةِ، وعن التعبيرِ عن ذاتهِ بوسائلَ أخرى ، كحركاتِ الجسمِ واليدين وتعبيراتِ الوجهِ)) (٥) .

إنَّ حركةَ الجسدِ اللغويةَ الكاشفةَ عن داخلِه لا تنقطعُ ولا تتوقفُ، ((وسواءٌ كانَ هذا الجسدُ مُرسلًا أو مستقبلًا، فإنَّهُ ينتجُ المعاني من دون هوادةٍ، ويعملُ على دمجِ الإنسانِ بكلِّ قوةٍ داخلَ فضاءٍ اجتماعيٍّ وثقافيٍّ معينٍ))(٦)، فالإنسانُ بلغةِ الجسدِ يقولُ حينَ لا يقولُ، ويبوحُ جسدهُ بما لا يبوحُ به لسانهُ، بل إنَّ الشيءَ المثيرَ للدهشةِ هو أنَّ الإنسانَ نادرًا ما يُدركُ أنَّ وقفتَهُ وحركاتَهُ وإيماءاتَهُ وتعابيرَ وجهِهِ يمكنُ أنْ تقولَ شيئًا يختلفُ تمامَ الاختلافِ عما يقولهُ صوتهُ (٧)؛ وذلكَ بسببِ تلكَ الحركةِ اللغويةِ الجسديةِ المستمرةِ ، إذ يصعبُ على الإنسانِ أنْ يُجاريَ بعقلِهِ تلكَ الحركةَ السريعةَ ، ويعزُّ عليه أنْ يكونَ منتبهًا تمامَ الانتباهِ إلى تلكَ النوافذِ التي تنفتحُ بعضُها إثرَ بعضٍ بواسطةِ حركةِ الجسدِ اللغويةِ ، كاشفةً عن مكامنهِ النفسيَّةِ ، وعن ذلكَ العالمِ الداخليِّ ، الَّذي قد يكونُ جاهدَ كثيرًا في سترِهِ، أو إخفاءِ بعضِ جوانبِهِ ؛ إذ إنَّ تلكَ الحركاتِ الجسديةَ اللغويةَ من الدقةِ والكثرةِ بحيثُ لا يُحاطُ بها إحاطةً تامَّةً ، ولا يتحكَّمُ فيها تحكُّمًا كاملًا، وكلُّها ((خاضعةٌ لعددٍ من الأنظمةِ الرمزيةِ، فمن الجسدِ تنبثقُ وتتناثرُ العلاماتُ والمعاني التي تؤسسُ للتواجدِ الفرديِّ والجماعيِّ))(٨) .

وهذه الحركةُ الجسديةُ اللغويةُ ينتجُ عن تبادلِها، أو عن عمليَّةِ إرسالِها واستقبالِها ما يمكنُ أن نسمِّيَه (حديثَ الجسدِ للجسدِ)، هذا الحديثُ يصلُ بالتفاهمِ النفسيِّ بين الأشخاصِ إلى مستوياتِهِ العُليا، فبهِ يدركُ الإنسانُ حقيقةَ ما يُقالُ، ويسمعُ مالا يُقالُ، ولذا يكونُ لهذا الحديثِ أثرُه البعيدُ العميقُ، حتى أنَّه يكونُ أنجعَ في تحقيقِ الطمأنينةِ النفسيةِ، ولقد اعتمدَ الدينُ الإسلاميُّ – مثلًا – على هذهِ النقطةِ في إرساءِ بعضِ القواعدِ الأخلاقيةِ والسلوكيَّةِ في المجتمعِ المسلمِ، فنجدُ أنَّ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم– يحضُّ على مسحِ رأسِ اليتيمِ قائلًا : ((مَنْ مَسَحَ رَأسَ يَتِيمٍ لَم يَمسَحهُ إِلَّا لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ))(٩)، وهنا يبدو الإدراكُ الواعيُّ بما تستطيعُ أنْ تُحدثَهُ تلكَ المسحةُ البريئةُ، فهذا الحديثُ الموجَّهُ من الجسدِ إلى الجسدِ يمدُّ قلبَ اليتيمِ بالدفءِ؛ لأنَّ تلكَ الملامسةَ بين الجسدينِ تحملُ تعبيرًا في غايةِ القوةِ عن الحبِّ، حتى أننا نستطيعُ أنْ نقولَ إنَّ الطفلَ اليتيمَ يلمسُ الحبَّ لمسًا حين يُمسحُ على رأسِهِ، ويتغلغلُ دفءُ اليدِ الماسحةِ وحنوِّها إلى قلبِهِ، وخُصَّ الطفلُ اليتيمُ بهذا لما افتقدَهُ من الدفءِ والحنانِ بسبب وفاةِ أحدِ والديهِ أو كليهما، فهو بحاجةٍ إلى جرعةٍ كبيرةٍ مما

افتقدَ، فيكونُ احتواءهُ بحديثِ الجسدِ هو الطريقةَ الأشدَّ فعالية، ويكونُ لفاعلِ هذا الوعدُ بالثوابِ العظيمِ. ولم يكنْ هذا التقديرُ لآثارِ الحَديثِ الجسديِّ مقتصرًا على التوجيهاتِ الأخلاقيةِ الخاصةِ؛ فقد صدرتْ بعضُ التوجيهاتِ الأخلاقيةِ العامَّةِ المهمةِ التي تضمنتْ ذلكَ أيضًا كقولهِ – صلى الله عليه وسلم: ((لَا تَحقِرَنَّ مِنَ الْمَعرُوفِ شَيئًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ، فَالقَ أَخَاكَ بِوَجهٍ طَلْقٍ))(١٠)، وقولهُ : ((وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ))(١١). لذلكَ فإنَّ الأساسَ الأوَلَ فِي ((قراءةِ لغةِ الجسدِ هو القدرةُ على فهمِ حالةِ الشخصِ العاطفية ، بينما تستمعُ إلى ما يقولُه ، وملاحظة الظروفِ التي يقولُ ذلكَ فيها))(١٢)، وكلما قويتِ العلاقةُ بينَ النفسينِ ازدادَ التخاطبُ بين الجسدينِ ، وتفاعلتْ فيهِ كلُّ أعضائِهما ، وحاولَ كلٌّ من هذهِ الأعضاءِ أنْ يُفرغَ ما يستطيعُ من نصيبهِ من الشحنةِ العاطفيةِ ، التي تسيطرُ على النفسِ، كلُّ عضوٍ بقدرِ طاقتهِ ، وبطبيعةِ ، وظيفتهِ ، فبعضُها باللمسِ المباشرِ للجسدِ الآخرِ ، وأعضائهِ ، وبعضُها بالحركةِ الموحيةِ ، ولكلِّ علاقةٍ الحَديثُ الجسديُّ الملائمُ لها ، وحديثُ الجسدِ للجسدِ داخلَ العلاقةِ الواحدةِ يختلفُ من حينٍ إلى آخرَ ، بحسبِ الظروفِ الواقعيةِ المحيطةِ ، والأحوالِ النفسيةِ الغالبةِ ، فللأجسادِ عندَ العشاقِ مثلًا لغتُها الخاصَّةُ عندَ الفراقِ ، ولغتُها المُتَميزةُ الخاصَّةُ عندَ اللقاءِ والرغبةِ (١٣)، وفي كلِّ الأحوالِ يعودُ كلُّ هذا إلى مدلولٍ واحدٍ جامعٍ اقتضى أنْ يُفضيَ الجسدانِ بالحَديثِ الذي يناسبُ كلَّ حالةٍ ، ويصبُّ في تأكيدِ المدلولِ الجامعِ ، وإنَّ الشعرَ في عَصرَي المُرابطِينَ وَالمُوَحدينَ في الأندُلسي لم يكنْ لهُ مفرٌّ من أنْ يتناولَ ويُوظفَ حَديثَ الجسدِ للجسدِ ، شأنُه شأنُ الشعرِ جميعهِ ، إذ تُشكلُ العلاقاتُ الإنسانيةُ موضوعًا محوريًّا من موضوعاتهِ ، وتلكَ العلاقاتُ يكونُ حَديثُ الجسدِ مُقوِّمًا من أهمِّ مُقوِّماتِها ، ومظهرًا من أهمِّ مظاهرِها ، ومن النماذجِ الشعريةِ من شعرِ عَصرَي المُرابطِينَ وَالمُوَحدينَ التي تناولتْ حَديثَ الجسدِ للجسدِ قولُ الأعمى التطيلي (١٤) :

أَحْلَى مِنَ الأَمنِ وَصْلًا لَو ظَفِرْتُ بِهِ ... لَكِنْ تُسَوِّفُني عَينَاهُ وَالنَظَرُ
يَجُولُ مَاءُ الصِّبَا فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ ... وَيُنبِتُ الوَردَ أحيَانًا بِهَا الخَفَرُ(١٥)
هُوَ الغَزَالَةُ فِي إِشْرَاقِ غُرَّتِهِ ... وَابنُ الغَزَالَةِ لَحْظًا زَانَهُ الحَوَرُ

يقولُ الشاعرُ هنا إنَّ أحلى شيءٍ عندهُ حتى من الأمنِ وصلُ من يُحبُّ لو تحقَّقَ له ، ولكن لا سبيلَ إلى تحقيقِ هذا الوصلِ تحقيقًا قريبًا ، فمن يُحبُّ يُسوِّفُ لهُ الوصلَ ويؤخرهُ ، ثمَّ يتطرَّقُ إلى وصفِ ذلكَ الجميلِ المُسوِّفِ قائلًا : إنَّ ماءَ الصبا يجولُ في وجنتِهِ، كنايةً عن

نضارةِ وجهِهِ ونعومتِهِ وبياضِهِ ؛ ويقولُ إنَّ الخجلَ يُنبتُ الوردَ في تلكَ الوجنةِ ، وهذا كنايةٌ عن احمرارِ وجنتيهِ، ذلكَ الاحمرارَ المحببَّ ، ثم يشبِّهُه بالغزالةِ وابنِها في إشراقِ غُرَّتهِ وحورِهِ ، ويبدو لنا من البيتِ الأول: (أحلى منَ الأمنِ وصلًا لو ظفرتُ بهِ)، أنَّه دائمُ التفكيرِ في ذلكَ الحبيبِ، لا يشغلُ نفسَهُ شيءٌ غيرَ الرغبةِ في وصلهِ وقُربِهِ، حتى أنَّهُ صارَ لديهِ ذلكَ الوصلُ المتمنَّى أحسنَ من كلِّ شيءٍ، حتى من الأمنِ، ونلمسُ من هذا أنَّ الشاعرَ يتمنى أنْ يُتاحَ له هذا الوصلُ ولو بكلِّ ما يملِكُ، ويبدو أنَّ شدةَ الشوقِ إلى ذلكَ الوصلِ جعلتْهُ متوتِّرًا، لا يتقبَّلُ فكرةَ أنَّ ذلكَ الجميلَ لم يضربْ لهُ موعِدًا يصلهُ فيهِ فيطمئنَّ إلى ذلكَ، ثمَّ تتملكهُ الحيرةُ حينَ يتذكَّرُ إنَّ إشاراتِ ذلكَ الجميلِ بعينيهِ تُسوِّفُ له الوصلَ وتؤجِّلهُ، ونفهمُ من هذا أنَّ التواصلَ بينَ الشاعرِ ومن يحبُّ لم يكنْ بغيرِ لغةِ العيونِ والنظرِ، ((والنظرةُ من بينِ جميعِ الحركاتِ هي أشدُّ مرايا النفسِ بلاغةً من غيرِ لبسٍ ممكنٍ))[١٦]، فلم يشُكَّ فيما فهمهُ من أمرِ تسويفِ الوصلِ، وهذا يدلُّ على الصدقِ النفسيِّ للطرفِ الآخرِ، ونستنتجُ من قولِه: (لكن تُسوِّفُني عيناه والنظرُ) أنَّ عَيْنَي ذلكَ الحبيبِ تترددانِ عندَ نظرِ الشاعرِ إليهِ ولا تثبتُ، وهذا التردُّدُ هو الحركةُ التي يفهمُ منها الشاعرُ التسويفَ والتأجيلَ، وهذا الحَديثُ الجسديُّ الذي نقلَهُ إلينا الشاعرُ يكشفُ لنا كثيرًا من الجوانبِ النفسيةِ للطرفينِ، المرسلِ والمستقبِلِ، فأمَّا المستقبِلُ وهو الشاعرُ فيبدو لنا أنَّه مستاءٌ من ذلكَ التسويفِ الذي فهمَهُ من عينَي الحبيبِ المرسلِ ونظرِهِ، ونفهمُ من هذا أنَّ حَديثَ العيونِ والنظرِ بينهما حَديثٌ ذو شجونٍ، فهذهِ ليستْ المرَّةَ الأُولى التي ينظرُ فيها الشاعرُ إلى عيني ذلكَ الحبيبِ منتظرًا أنْ يؤذنَهُ بأنَّهُ حانَ وقتُ الوصلِ. إنَّ الشاعرَ في كلِّ مرةٍ يذهبُ ممتلأً بالأملِ في أنَّ ذلكَ الحبيبَ سيرسلُ إليهِ الإشاراتِ الجسديةِ التي تُبشِّرهُ بأنَّهُ حانَ ميعادُ ذلكَ الوصلِ، الذي صارَ لديهِ من طولِ انتظارِه أحلى من الأمنِ، أو ظنَّ هو ذلكَ، لكنَّهُ لا يلبثُ أنْ يعودَ واجمًا مهتمًا حزينًا كاسفَ البالِ[١٧]، فهو لم يظفرْ بمطلوبِهِ، وهو مع ذلكَ لم ييأسْ، لأنَّه يعلمُ أنَّ هذا ليسَ إلا تأجيلًا، وعبارةُ الشاعرِ: (لكن تسوِّفُني عيناهُ والنظرُ) تنسبُ كما هو واضحٌ التسويفَ إلى عيني ذلكَ الحبيبِ ونظرِهِ فقط ، وهذا ما يُوحي إلينا أنَّ الشاعرَ قد يكونُ لا يُحيطُ بكلِّ أسبابِ التسويفِ الذي ينطقُ بهِ نظرُ الحبيبِ، وهذا يجعلهُ يشعرُ بالحيرةِ، وخاصةً أنَّ رغبتَهُ الجامحةَ في أنْ يتمَّ له وصلُ ذلكَ الحبيبِ الفاتنِ سيطرتْ عليهِ سيطرةً كاملة، فلم يكنْ له همٌّ إلا أنْ تتمَ رغبتُه، مما جعلَهُ لا يرى تلكَ الأسبابَ المانعةَ التي تقفُ وراءَ تسويفِ الحبيبِ، أو لعلَّهُ يراها ولا يقتنعُ بها، هذا فيما

يخصُّ المستقبلَ للإشاراتِ الجسديةِ، أمَّا إنْ ذهبْنا إلى المرسلِ وهو الحبيبُ، فتلكَ الإشاراتُ الجسديةُ التي أرسلَها بنظرِهِ وفهمَ منها الشاعرُ تسويفَهُ للوصلِ، تدلُّ على أنَّهُ صادقُ الحبِّ أيضًا، فهو لم يُعرِضْ عن الشاعرِ، ولم يُشرْ إليهِ بإشارةٍ يُفهمُ منها أنَّهُ لا يرغبُ في الوصلِ، بل هو يسوِّفُ تسويفًا، واستطاعتهُ أنْ يرسلَ هذه الإشاراتِ التي يُفهمُ منها التسويفُ تدلُّ على شدةِ حبِّهِ ومعاناتِهِ أيضًا، بسببِ تعذُّرِ الوصلِ، فهو لم يقفْ بنظرِهِ في منطقةٍ حياديةٍ تُبعِدهُ عن الشبهاتِ، ولكن بلغَ به الحبُّ أنَّه أرادَ أنْ يقولَ للشاعرِ: إني أحبكَ جدًّا كما تحبُّني، ورغبتي في أنْ يسمحَ لنا الزمانُ بالوصلِ لا تقلُّ عن رغبتِك شدةً ، ولكنهُ لمَّا لم يستطعْ أنْ يقولَ ذلكَ بلسانهِ لم يكنْ هناكَ بُدٌّ من أنْ يقولَه بنظرِهِ، وهذا التسويفُ الذي فُهمَ من حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ معَ ذلكَ الحبِّ الذي يحملهُ المُرسِلُ يدلُّ على أنَّ الظروفَ المحيطةَ والواقعَ لا يسمحانِ بذلكَ الوصلِ المرغوبِ من الطرفينِ، ويُفهمُ من ذلكَ أيضًا حالةُ الخوفِ والحذرِ التي تُسيطرُ على الحبيبِ، فهو يُرسلُ الإشاراتِ بنظرِهِ وسطَ الأبصارِ والأسماعِ الكثيرةِ القريبةِ ، ويسترقُ النظرَ استراقًا ليوصلَ إلى الشاعرِ رسالتهُ ، فهو من ناحيةٍ يخشى أنْ يشعرَ بهِ أحدٌ ، ويكتشفَ أمرَهما ، ومن ناحيةٍ أخرى يخشى أنْ ييأسَ الشاعرَ من الوصلِ ، ويُسيءَ الفهمَ ، ويظنَّ أنَّ لا اهتمامَ لهُ به ، وفي وسطِ هذهِ الأجواءِ الواقعيةِ والنفسيةِ جاءَتْ تلكَ الإشاراتُ الجسديَّةُ السريعةُ.

نستطيعُ أنْ نقولَ إنَّ العينَ هي القائدُ في كلِ عمليةِ محادثةٍ جسديةٍ ، فهي قد أوتيتْ قدرةً كبيرةً جدًّا على إيصالِ مختلفِ الرسائلِ الناتجةِ عن مختلفِ الانفعالاتِ والمشاعرِ، حتى قيلَ ((إنَّ من ينظرونَ للآخرينَ يكتسبونَ مصداقيةً أكثرَ ممن لا ينظرون))[١٨]، فالنظرُ هو مفتاحُ التواصلِ الجسديِّ والنفسيِّ ، وهو غالبًا فاتحةُ العَلاقاتِ العاطفيةِ، لذا نالَ عنايةً كبيرةً في الشعرِ العربي، فتلكَ النظراتُ الساحرةُ التي تُرسلُها المرأةُ فتسحرُ ذا اللبِّ حتى لا حراكَ به- لم ينقطعْ الحديثُ عنها في الشعرِ، ولم يقلَّ، بل كانَ حَدِيثُ العيونِ عمادًا من أعمدةِ كلِّ خِطابٍ شعريٍّ عاطفيٍّ أو غزليٍّ، حتى وإنْ تمثَّلَ الحديثُ عن حديثِ العيونِ في كلمةٍ واحدةٍ كما قالَ الجزارُ السرقسطيُّ[١٩]:

أَلَمَّ خَيَالُ مَيَّةَ عَنْ لِمَامِ[٢٠] ... بِنَارِ مُنًى فَحَيَّا بِالسَّلامِ
وَذَكَّرَنَا بِجَانِبِ ذِي طُلُوحٍ[٢١] ... زَمَانُ الوَصْلِ فِي تِلْكَ الخِيَامِ
وَأيامًا لَنَا بِلَوَى[٢٢] أَرِيكٍ[٢٣] ... نَعِمْنَا فِي مَرَاسِمِهَا [٢٤] الوُسَامِ[٢٥]

بِكُـلِّ خَـــرِيـــدَةٍ [٢٦] حَسْنَـــاءَ رُوْدٍ[٢٧] ... خَلُـوبٍ [٢٨] اللحـــظِ مُرهَفَـــةِ القِـــوَامِ
عَجِبْـتُ لَـــطِيفًـــا أنـى تَهــدِي ... إلينَـــا طَـاوِيًـــا تِلـــكَ المَوَامِـــي

فلفظـةُ (خلـوبِ) هنـا تـدلُّ علـى امـتلاكِ المـرأةِ التـي يتحـدَّثُ عنهـا مقومـات القـوةِ ، والثقـةِ ، والجمالِ، فكأنَّ لحظَها يأخذُ بزمامِ قلب الرجُلِ ، وتَتَحَكمُ بهِ ، وهذه الكلمةُ في وصفِ اللحظِ تنقلُ لنـا صـورةً متداولـةً مـن حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ، هـذه الصـورةُ تمثِّلُ بدايـةَ أكثـرِ العلاقـاتِ العاطفيَّة، فهناكَ امرأةٌ جميلـةٌ ذاتُ طرفٍ ساحرٍ، تنظرُ بـهِ إلى رجلٍ فيقَعُ بـه في شباكِ حبِّها، هذا هو ظاهرُ الأمرِ أو مُختصَرُه، لكن هنـاكَ مزدحمٌ من المضـامينِ والـدلالاتِ النفسيَّةِ وراءَ هذا المشـهدِ الـذي كـانَ حَدِيثُ العيونِ هو السيدَ فيه، كونـه يعلـبُ دورًا هامًـا مُؤثرًا فـي مجـالِ التواصلِ الإشَاريِّ بينَ الافرادِ [٢٩]، فكلمةُ (خلوبٍ) كما أشرنا تضعُنا أمامَ امرأةٍ تمتلكُ الجمالَ الذي يمُدُّها بالقوةِ ، والثقةِ، وتدلُّنا أيضًا على أنَّها نظرتْ إلى الرجلِ الذي سحرتْهُ نظرًا غيرَ بريءِ النيةِ، وهذا النظرُ جاءَ من إعجابٍ به، هذا الإعجابُ حملَها على أنْ تُحاولَ الإيقاعَ به، وتدلُّ هذه الكلمةُ أيضًا على أنَّ الرجلَ لم يلبثْ أنْ وقعَ في أسرِها، وانساقَ إليها بنظرِهِ وقلبهِ. فنحنُ هنـا أمـامَ العلاقـةِ التـي يكـونُ فيهـا التواصـلُ فـي بدايتـهِ تواصُـلًا جسديًّا، إذ يـدلُّ التفاعلُ الذي جرى بين العيونِ على القبولِ الذي حازَ قلبَ الطرفينِ، وعلى الاستعدادِ النفسيِّ للدخولِ في علاقةٍ عاطفيةٍ متى توفَّرتِ الشروطُ المطلوبةُ، التي تعودُ كلُّها إلى التآلفِ الروحيِّ، بل إنَّ الأمرَ أكبرُ من هذا، إنَّ هناكَ انشغالًا دائمًا للعقلِ الباطنِ بالبحثِ عن الحبِّ، ومتى وجدَ قلبُ المرأةِ ريحَ هذا الحبِّ، فانطلقتْ عينُها بالنظرِ إلى الجهةِ التي تأتي منها تلكَ الريحُ، ووقعتْ علـى الشـخصِ الـذي كانـتْ تبحـثُ عنـه، وبـذلكَ النظـرِ غيـرِ المُحـاطِ بقوتـهِ مـن قبـلَ النـاظرِ والمنظـورِ إليـهِ تبـدو العينُ كأنَّهـا تنتزعُ شيئًا مـن جسدِ المنظـورِ إليـهِ، فـي هـذه اللحظـةِ أخذتِ العينُ أو اللحظُ هذه الصفةَ (خلوب)، فالمنظورُ إليهِ لم يعملْ فيه النظرُ هذا العملَ إلا لأنَّهُ أيضًا كانَ عقلُه الباطنُ يبحثُ عنِ الحبِّ، ونفسهُ تحتاجُ إليهِ، فلمَّا وافقَ ذلكَ النظرَ الصادقَ المفعمَ بالعاطفةِ لم يلبثْ أنْ وقعَ في الحبِّ، فرأى كأنَّ هذا النظرَ يخلبهُ خلبًا ويستخرجُ روحَه، هذا النظرُ يمثِّلُ حَدِيثَ جسدٍ لجسدٍ، وقد كانَ هذا الحَدِيثُ فاتحةَ علاقةٍ عاطفيَّةٍ ، قد تطولُ هيمنتهُ فيها، أو تقصُرُ إلى أنْ يُتاحَ حَدِيثُ الألسنِ، لكن يظلُّ هذا الحَدِيثُ الجسديُّ هو بابَ التواصلِ، ويظلُّ التفاهمُ النفسيُّ الذي ظهرَ خلالَـهُ هو التفاهمَ المطلوبَ الذي هو أساسُ ذلكَ النوعِ من العلاقات.

إنَّ حَدِيثَ العينِ والنظرِ لا يزالُ في تطوُّرٍ مع تطورِ العلاقةِ ، فهو مستمرٌّ في أداءِ الوظائفِ المنوطةِ به ، حتى وإنْ أخذَ حَدِيثُ اللسانِ موضعَهُ، فإنَّ حَدِيثَ العينِ لا يُخلي له الساحةَ، بل يظلانِ متعاضدينِ في إرسالِ الرسائلِ ، وتحقيقِ التواصلِ النفسيِّ، كُلٌّ بقدرِ استطاعتهِ، وطبيعتهِ، وهو كما عبَّرَ دومًا عن التوافُقِ النفسيِّ الذي يكونُ أساسَ العلاقاتِ عامَّةً ، والعلاقاتِ العاطفيَّةِ خاصَّةً – عبَّرَ أيضًا عن الاختلافِ النفسيِّ الذي يمنعُ من تكوُّنِ العلاقاتِ ، فالنظرُ إذن استطاعَ أنْ يُعبِّرَ عن المواقفِ النفسيَّةِ بدقةٍ ووضوحٍ ، ولا تقتصرُ قدرةُ النظرِ التعبيريةِ على إيضاحِ المواقفِ النفسيةِ فقطْ، بل هو قد ينوبُ منابَ الحَدِيثِ اللسانيِّ الطويلِ ، وهو ما يمكنُ أن نُسمِّيَه (خاصيَّةُ البوحِ والمكاشفةِ) ، ويظهرُ ذلكَ – مثلًا– في قولِ الحكمِ بن أبي الصلت (٣٠):

وَقَفْنَـــــا لِلنَّـوَى (٣١) فَهَفَـتْ قُلُـــوبٌ ... أَضَـرَّ بِهَـا الجَـوَى (٣٢) وَهَمَـتْ شُـؤُونُ(٣٣)

يُنَـــاجِي بَعضَـــنَا بِـــاللَّحظِ بَعضًـــا ... فَتُعـــرِبُ عَـــنْ ضَـــمَائِرَنَا العُيُـــونُ

فَـــلا وَاللهِ مَـــا حَفِظَـــتْ عُهُـــودٌ ... كَمَـــا ضَـــمِنُوا وَلا قُضِـــيَتْ دُيُـــونُ

وَلَـــو حَكَـــمَ الهَـــوَى يَومًـــا بِعَـــدلٍ ... لأَنْصَـــفَ مَـــنْ يَفـــي مِمَّـــنْ يَخُـــونُ

أَمُـــرُّ بِـــدَارِكُم فَـــأَغُضُّ طَرَفِـــي ... مَخَافَـــةَ أَنْ تُظَـــنَّ بِنَـــا الظُّنُـــونُ

هنا ينقلُ لنا الشاعرُ مشهدًا من مشاهدِ الوداعِ والفراقِ بينهُ وبين حبيبهِ، فيقولُ إنَّهما وقفا للفراقِ فخفقتْ قلوبٌ قد أضرَّ بها الحزنُ، وسالتْ الدموعُ، ثمَّ يدخلُ إلى الحديثِ عن حَدِيثِ العيونِ، فيُصرِّحُ أنَّهما وقفا يتناجيانِ بالنظرِ والعيونِ، فيُعربُ ذلكَ عمَّا في ضمائرِهما، ثمَّ يشكو الحبيبَ؛ لأنَّه فارقَهُ، بالحديثِ عنهُ بصيغةِ الجمعِ، فيقسمُ من حرقتهِ أنَّها ما حُفظتْ عهودٌ كما ضمِنوا، ولا قُضِيتْ ديونٌ، ولو أنَّ الهوى قامَ يحكمُ حكمًا عادلًا لأنصفَ من وفى على من خانَ، وواضحٌ من يقصدُ الشاعرُ بمن يفي ومن يخونُ، ثمَّ يأتي الشاعرُ بما يدلُّ على صدقِ حبِّهِ ووفائهِ، يقولُ إنَّهُ يمرُّ على دارِ الحبيبِ بعد الفراقِ فيغُضُّ طرفَهُ، خشيةَ أنْ يظنَّ بهما الظنونُ، ويُرمى الحبيبُ بكلامِ الناسِ، وهذا هو غايةُ الحبِّ والوفاءِ. إننا إذن أمامَ مشهدٍ مهيبٍ من مشاهدِ الحبِّ، وهو مشهدُ الوداعِ ، إذ تخفقُ القلوبُ بشدةٍ ، فهو مشهدٌ صعبٌ على النفوسِ ، على أنَّ هذا المشهدَ مجالٌ واسعٌ لحديثِ الأجسادِ ، كأنَّ الحُزنَ الشديدَ العميقَ الذي يأخذُ بشغافِ القلوبِ في هذا المشهدِ لا يقدرُ الحَدِيثُ العاديُّ على التعبيرِ عنه ، فالكلامُ المنطوقُ لا يُمكنهُ أنْ يُسعفَ العشاقَ في هذا المشهدِ، فالأمرُ جلَلٌ، فالشاعرُ يتحدثُ عن

دموعٍ تسيلُ، وهذا السَّيلانُ للدموعِ هو أولُ حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ هنا في الأبياتِ، كأنَّ الحزنَ الذي ملأَ النفوسَ وعجزَ الكلامُ عن التعبيرِ عنهُ فاضَ حتى سالَ دموعًا على خدودِ العاشقينِ، إنَّ سيلانَ الدموعِ أيضًا يدلُّ على إحساسِ الإنسانِ بالعجزِ، وانعدامِ الحيلِ أمامَ القدَرِ، فالعاشقانِ هنا يودانِ لو يتوقفُ هذا المشهدُ، ويودانِ لو وجدا منفذًا فيهرُبانِ من هذا المشهدِ إلى حيثُ لا يفترقانِ أبدًا، وتصطدمُ حلاوةُ الخيالِ بمرارةِ الواقعِ، فلا يستطيعانِ تحمُّلَ هذا، فتفيضُ العيونُ بالدموعِ، لم يقتصرْ الأمرُ بحديثِ الجسدِ للجسدِ على تلكَ الدموعِ التي تسيلُ، بل إنَّ العيونَ حدثَ بينها – على حدِّ تعبيرِ الشاعرِ– مناجاةٌ، هذه المناجاةُ أعربتْ فيها العيونُ عمَّا أكنَّتْهُ الضمائرُ، ولم يبالغْ الشاعرُ بهذا القولَ، بل هو قدَّمَ عينَ الحقيقةِ. إنَّ نظراتِ العيونِ بعضِها إلى بعضٍ في تلكَ اللحظاتِ تقولُ كُلَّ شيءٍ ، فـ ((عندَها تكونُ النظرةُ كيانًا تشريحيًا مستقلًا بذاتهِ، فتفضحُ تعابيرُها مشاعرَ يمكنُ ترجمتها بالكلماتِ))[٣٤]، فمشاعرُ الحبِّ والتعلقِ المكنونةُ تتألقُ فيهما، وذكرياتُ الحبيبينِ كلٍّ منهما مع الآخرِ، وسعادةُ اللقاءاتِ، والتواصلُ الخفيُّ ، والرسائلُ السريةُ، والماضي القريبُ ، والتفكيرُ في عواقبِ الفراقِ، وعدمُ تكيفِ النفوسِ معه، وشبحُ الوحدةِ الذي يلوحُ في الأفقِ، وانقطاعُ التواصلِ، والخوفُ من المجهولِ، كُلُّ هذا وكثيرٌ غيرُه لا نستطيعُ عدَّه، لا يمكنُ للكلامِ أنْ يعبرَ عنه في آنٍ واحدٍ، إلا أنَّ العيونَ في نظرِها بعضِها إلى بعضٍ في تلكَ اللحظاتِ استطاعتْ أنْ تُعبِّرَ عنها بأحسنِ ما يكونُ التعبيرُ ، إنَّ تلكَ الحيرةَ التي تبدو في العيونِ حينها نتيجةَ الكثافةِ الشديدةِ من الأفكارِ والرسائلِ والمضامينِ النفسيَّةِ، إنَّ هذا المضمونَ الكثيفَ الذي تبوحُ به العينانِ ساعةَ الوداعِ كأنَّهُ يستفرغُ كلَّ ما في القلبِ فيجعلهُ فارغًا كقلبِ أمِّ موسى (عليه السلام)، هذا الفراغُ قد آلمَ قلبَ الشاعرِ جِدًّا حتى أنَّه يتهمُ الحبيبَ مُقسمًا بأنَّه ما حفظَ عهدًا ، ولا قضى دينًا.

إنَّ حَدِيثَ العيونِ يشكلُ ((محطةَ ارسالٍ واستقبالٍ للرسائلِ التي تساهمُ في اكمالِ المشهدِ التفاعليِّ الحياتيِّ))[٣٥] ، ويكونُ أشدَّ حضورًا في مشهدِ الوداعِ منه في غيرهِ كما هو معروفٌ ؛ لأنَّهُ لا يستطيعُ أن يُعبِّرَ عن ذلكَ المزدحمِ من الانفعالاتِ والأفكارِ والمضامينِ النفسيةِ غيرُ هذا الحَدِيثِ ، وهذا الحَدِيثُ يزيدُ حدَّةً وكثافةً حين لا يكونُ متاحًا للحبيبينِ غير حَدِيثِ العيونِ، وحينَ لا يستطيعانِ غيرَ ذلكَ، فإنَّ حيلولةَ أسبابٍ بينَ الحبيبينِ وإعطاءِ الوداعِ حقَّهُ من تفاعُلِ الجسدينِ تزيدُ من الحسراتِ في قلوبِ المحبين. إنَّ حَدِيثَ الجسدِ للجسدِ عبرَ العيونِ على ما يملكهُ ويؤديهُ من طاقةٍ تعبيريةٍ رهيبةٍ، إلا أنَّ النفوسَ تكونُ بحاجةٍ إلى حديثٍ جسديٍّ يُقرِّبُ

الجسدينِ أقصى قربٍ ممكنٍ، حديثٍ يكادُ يخلطُ الجسدينِ بعضِهما ببعضٍ، فيلتفحُ كلٌّ منهما بنارِ الآخرِ، ويشعُرُ كلٌّ منهما بالمرارةِ التي في جسدِ الآخرِ كأنَّها في فمِه هو، فيتشاركانِ معًا مجموعَ وجدِهما، ومرارةِ الفراقِ ، وضراوةِ الحزنِ ، ونارِ الحبِّ ، لذلكَ يكونُ العشاقُ جميعًا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى ذلكَ الحَديثِ ، مما حدا بشاعرٍ من شعرائِنا وهو الأميرُ أبي الربيعِ أنْ يقولَ (٣٦):

وكُـــلٌّ يُبكِّـــي طَرْفُـــهُ قَـــدْرَ وَجْـــــدِهِ ... فَـــدَامٍ عَلَـــى إثْـــرِ المَطِـــيِّ[٣٧] وَدَامِـــعُ
تَفَـرُّقَ شَـمْلٍ ضَـاقَ صَـــــــدْرِي بِحَمْلِـــهِ ... وَصَـدْرِي – كَمَـا قَـدْ يَعْلَـمُ النَّـاسُ– وَاسِـعُ
فَيَـا مَـانِعِي أنْ أَشْـتَفِي مِـنْ رُضَـابِهِ[٣٨] ... أَنِلْنِـي مِـنَ التَّوْدِيـعِ مَـا أَنْـتَ مَـانِعُ
فَإنَّـكَ لا تَـدْرِي إذا شَـطَّـــتِ[٣٩] النَّـوَى ... وسَـارَتْ بِنَـا الرُكبَـانُ مَـا اللهُ صَـانِعُ ؟

نجدُ الشاعرَ هنا أيضًا يصفُ مشهدًا من مشاهدِ الوداعِ، ويبدو أنَّ البكاءَ عنصرٌ أساسيٌّ من عناصرِ مشهدِ الوداعِ بينَ المحبين، فإن لم يكنْ بكاءً خارجيًّا مرئيًّا، فهو بكاءٌ داخليٌّ نفسيٌّ، يقولُ الشاعرُ إنَّ كلَّ واحدٍ من الحبيبينِ يبكي بقدرِ وجدِهِ وحزنِهِ وشعورِهِ أنَّهُ سيصيرُ وحيدًا، هناكَ من يبكي دمًا عندَ أخذِ الركابِ في الرحيلِ، وهناك من يبكي دموعًا. إنَّ من يبكي ، يبكي تفرُّقَ شملٍ ضاقَ صدري به، وصدري كما يعلمُ الناسُ عنهُ واسعٌ، قد يكونُ أرادَ أنَّ قلبَهُ لم يتحمَّلْ مشهدَ الاستعدادِ للِافْتِرَاقِ وضاقَ به، أو أرادَ أن قلبَهُ كانَ يضيقُ بذلكَ الحبِّ الذي جمعَ بينهُ وبينَ حبيبِهِ في صدرِهِ، لشدةِ حبِّهِ لهُ، وما يكلِّفهُ ذلكَ الحبُّ من انشغالٍ وتفكيرٍ وسهرٍ وغيرِ ذلكَ، ثمَّ يدخلُ إلى ما قصدنا إليهِ من التعبيرِ عن الحاجةِ الماسةِ إلى حَديثِ القربِ الجسديِّ، إذ يُخاطبُ حبيبَه قائلًا : يا مانعي من أنْ أشتفي من ريقِهِ وأقبله، أنلني من التوديعِ ما تمنعني منهُ، ثمَّ يعللُ طلبَهُ ذلكَ قائلًا : إنَّكَ لا تدري إذا أوغلتِ الركابُ في البعدِ، وعزَّ اللقاءُ، ماذا سيكونُ صنيعُ الله . إنَّ الشاعرَ هنا ينطلقُ من حُرقةٍ حقيقيةٍ، حرقةٍ أشعلَها موقفُ الفِراقِ، وهذه الحرقةُ تبدو جليَّةً من البيتِ الأولِ، إذ الحديثُ عن دامٍ بالبكاءِ ودامعٍ، إنَّ الشاعرَ – بلا شكٍّ – يقصدُ بالدامي نفسَهُ، فهو لم يكنْ ليحكمَ أنَّ كُلًّاً يبكي طرفهُ قَدْرَ وجدِهِ، ثمَّ يكونَ هو صاحبَ أدنى المنزلتينِ، فهو الأشدُّ وجدًا، وهو ما أكَّدهُ بعد ذلكَ، وهنا كما نرى كانَ حَديثُ الجسدِ للجسدِ – على عهدِه – هو سيدَ الموقفِ، فكما قلنا إنَّ ما يؤديهِ حَديثُ الجسدِ للجسدِ في موقفِ الفراقِ والوداعِ ليس بِوسعِ الحَديثِ العاديِّ أنْ يؤديَهُ، ويبدأُ حَديثُ الجسدِ للجسدِ هنا أيضًا بِحَديثِ الأعينِ الباكيةِ بعضِها لِبعضٍ؛ لما تحملُهُ من أحاسيسَ

وانفعالاتٍ وعواطفَ، تتشاركُ بها ومن خلالِها معَ النظراتِ الْأُخْرَى المنبعثة من الجسدِ الاخر(٤٠)، وإنْ كانَ الموقفُ النفسيُّ الذي يجمعُ حَدِيثَ الأعينِ واحدًا في مثلِ هذهِ المواقف، إلا أنَّ الشاعرَ جعلَ هناكَ درجتينِ من الانفعالِ الجسديِّ ، درجةً تكونُ العينُ فيها باكيةً داميةً، ودرجةً تكونُ فيها دامعةً، إنَّ هذهِ التفرقةَ التي قامَ بها الشاعرُ تدلُّ على الدقةِ الدلاليةِ التي تتمتعُ بها لغةُ الجسدِ عامةً، ولغةَ العينِ خاصَّةً، حتى أنَّ الحركةَ الجسديةَ الواحدةَ في الموقفِ الواحدِ لا تضعُ كلَّ الأطرافِ في خانةٍ واحدةٍ، بل هي تميِّزُ بينهم حسبَ شدةِ الأثرِ النفسيِّ للموقفِ عندَ كلٍّ منهم، فالعينُ الدامعةُ تدلُّ على أنَّ صاحبَها – وهو حبيبُ الشاعرِ– هنا أثَّرَ فيهِ موقفُ الفراقِ تأثيرًا شديدًا، وأنَّ الحزنَ ملكَ قلبَه، وأنَّه كانَ مرغمًا على هذا الموقفِ، وأنَّهُ لا حيلةَ لهُ فيهِ، وأنَّهُ يؤسفهُ ما صارَ الأمرُ إليهِ من وقوفِ الحبيبينِ على شفا الفراقِ، وأنَّهُ يحملُ همَّ المستقبلِ ويخشاهُ، ولا يدري كيفَ يكونُ العيشُ حينَ يصيرُ الحبيبُ بعيدًا عنه، لا سبيلَ إلى رؤيتِهِ ولا سماعِ صوتِهِ، هذا باختصارٍ هو ما تحملهُ الدلالةُ النفسيَّةُ للعينِ الدامعةِ هنا، وفي كلِّ موقفِ فراقٍ بينَ حبيبينِ، أمَّا إذا انتقلنا إلى الدرجةِ العليا من شدةِ الأثرِ النفسيِّ، فنجدُ أنفسَنا أمامَ العينِ الداميةِ للشاعرِ، والدلالةُ النفسيَّةُ لهذهِ العينِ تحملُ كلَّ المضامينِ النفسيةِ التي حملتها الدلالةُ النفسيَّةُ للعينِ الدامعةِ، إلا أنَّها تدلُّ على حزنٍ وألمٍ أشدَّ، إنَّها تدلُّ على شعورِ الشاعرِ بالضياعِ والعجزِ، وتدلُّ على الحرقةِ البالغةِ التي سببَّها له موقفُ الفراقِ، ودلالةُ هذهِ العينِ الداميةِ تجُرُّنا إلى صورةٍ عن العالمِ النفسيِّ للشاعرِ قبلَ هذا المشهدِ، فتضعُنا أمامَ رجلٍ ملكَ الحبُّ فؤادَه، لا يهدأُ قلبهُ من الحركةِ النفسيةِ العنيفةِ داخلَهُ، فهو يجدُ نفسَهُ لا يستطيعُ أنْ يعيشَ بدونِ ذلكَ الحبيبِ، وأنَّه حاولَ كثيرًا أنْ يطلبَ من ذلكَ الحبيبِ أنْ يصلَهُ، ولكن لم يتيسرِ الأمرُ البتةَ، وعدمُ تيسُّرِ الأمرِ، أو رفضُ الحبيبِ لهذا الوصلِ لأسبابٍ ما كانتْ تجعلُ قلبَ الشاعرِ أشدَّ نارًا وحرقةً، مع أنَّه يعلمُ أنَّ ذلكَ الحبيبَ يُحبُّهُ أيضًا، لكن لم يكنْ الحبُّ كافيًا بالنسبةِ لهُ، لقد بلغَ بهِ التعطُّشُ العاطفيَّ أوجهَهُ، ورفضُ الحبيبِ وصلَهُ، وإزالةَ هذا التعطُّشِ أو عجزُهُ عن ذلكَ، جعلتْهُ يرى أنَّ ذلكَ الحبيبَ لا يُحبُّهُ حقَّ الحبِّ، وأنَّهُ لا يتعذبُ مثلَهُ، فلما حانَتْ ساعةُ الفراقِ أثَّرَ ذلكَ التعطُّشُ على نفسِهِ تأثيرًا شديدًا، وعلمَ أنَّهُ لا سبيلَ إلى إروائِهِ، فالحبيبُ لم يفعلْ أوانَ القُربِ، فكيفَ له أنْ يفعلَ حينَ تشطُّ الدارُ، ويبعُدُ المزارُ، ولذلكَ رأى الشاعرُ أنَّ ذلكَ الحبيبَ لا يذوقُ ما يذوقُهُ هو من الحرقةِ، ورأى أنَّ وجدَهُ دونَ وجدِهِ، فرأى عينَ الحبيبِ دامعةً مقابلَ عينِهِ الداميةِ، وهو رغمَ ذلكَ ما زالَ يأملُ أنْ ينالَ

من الحبيبِ ما يتمنى، ويأملُ أنْ يكونَ موقفُ الفراقِ والوداعِ شفيعًا لهُ في نيلِ ما يُريدُ، وهو يرى أنَّ نيلَهُ لما يُريدُ سيُخفِّفُ من حُرْقَتِهِ كثيرًا، وربَّما يكونُ زادًا لهُ يتبلَّغُ بهِ إلى حينٍ، لذلكَ يُراودُ الحبيبَ عن نفسِه، ليُنشئَ معهُ حديثًا جسديًّاً أحسنَ نفعًا، وأجدى من حَدِيثِ العينِ للعينِ، حديثًا يُخففُ من أثقالِ القلبِ، وأحزانِ الفراقِ، ويُجددُ عهدَ الحبِّ، ويروي أملَ اللقاءِ فيما بعدُ . إنَّهُ يطلبُ منهُ ألَّا يمنعَهُ مما يقتضي مقامُ الوداعِ من التوديعِ، وهو التقبيلُ – كما صرَّحَ – والعناقُ كما هو معلومٌ . إنَّ الحاجةَ النفسيةَ لهذا الحَدِيثِ الجسديِّ تكونُ في أشدِّ حالاتِها في هذا الموقفِ ، فالجسدُ يُدركُ كيفَ سيكونُ افتقادُهُ للجسدِ الآخرِ عندَ البعدِ، لذا يُريدُ أنْ يُحققَ أقصى تواصلٍ ممكنٍ معهُ، إنَّه يُريدُ التماسَّ معهُ والإفضاءَ إليهِ، والشعورَ بدفءِ وجودِهِ، وكأنَّ الشاعرَ في قولِه: (فيا مانعي أن أشتفي من رضابِه) يُريدُ أنْ يقولَ ليسَ هذا الحينُ حينَ منعٍ، وهذه اللحظاتُ لا تُقارَنُ بغيرِها، فإنَّ الجسدَ كانَ يَتَعزَّى عن الوصلِ بإحساسِهِ بالقربِ المكانيِّ للجسدِ الآخرِ، أما وقد أوشكَ الجسدانِ أنْ يصيرَ كلٌّ منهما إلى غايةٍ، وأزفَ البُعدُ، فلا صبرَ للجسدِ على الوصلِ، إنَّهُ يُريدُ أنْ يقومَ بإنشاءِ محادثةٍ عميقةٍ مع الجسدِ الآخرِ، يحملُ في هذه المحادثةِ من رائحةِ الجسدِ الآخرِ، ومن دفئِه، ويحملُ من مكوناتِهِ، إنَّ الشاعرَ هنا يُريدُ أنْ يصلَ بالحَدِيثِ الجسديِّ إلى حدٍّ يكادُ يذوبُ فيه الجسدانِ، بل إنَّهُ هنا يُريدُ أنْ يلتهمَ جسدَ الحبيبِ، يريدُ أنْ يشعرَ بطابَعِ ذلكَ الجسدِ داخلَهُ، يُريدُ أنْ يحملَ منه ما يكونُ مُعينًا لهُ على فقدِهِ ؛ فإنَّهُ لا يدري ولا يدري الحبيبُ إنْ شطَّتْ النوى وسارتْ الركبانُ ما اللهُ صانعٌ ؛ ولا يدريانِ إلى متى سيطولُ الفراقُ، لذلكَ لم يكنْ عجيبًا أنَّه يُريدُ أنْ يشتفيَ من ريقِ هذا الحبيبِ، ولم يكنْ عجيبًا أنْ يُسمِّيَ هذا المستوى العاليَ من حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ اشتفاءً ، فإنَّ هذا التقبيلَ قادرٌ على أنْ يطفئَ كلَّ نارِ الماضي، ويُزيلَ كلَّ التعطشِ العاطفيِّ الذي تحدثنا عنه، ويستطيعُ أنْ يُطمئنَ القلوب بالتأكيدِ على صدقِ الحبِّ [٤١]، ذلكَ الصدقِ الذي يضمنُ لها أنَّه سيسوقُ الحبيبينِ إلى بعضِهما، وإْن تباعدتِ الديارُ، وعزتِ الأسفارُ.

إنَّ حَدِيثَ الجسدِ للجسدِ حينَ ينفتحُ له المجالُ، ويقولُ ما يُريدُ أنْ يقولَ، يُحدثُ الطمأنينةَ النفسيَّةَ، ويخلُقُ الشعورَ بالرضا، ويعززُ الثقةَ في النفسِ، ويُغني عن كثيرِ الكلامِ في حفظِ العهودِ وصيانتِها، ومما يتجلى فيه هذا الكلامُ من الشعرِ قولُ ابنِ خفاجةَ الاندلسي [٤٢]:

فَسَقَى اللهُ مَضَاجِعَنَا ... بَيْنَ طَلَحِ الجِزْعِ والسَّلَمِ [٤٣]

وَبَكَى بَاكِي الغَمَامِ بِهَا ... بَيْنَ مُنْهَلٍّ [٤٤] ومُنسَجِمِ [٤٥]

فَلَكَمْ شَكْوَى هُنَاكَ لَنَا ... وَلَكَمْ نَجْوَى بِهَا وَكَمِ
وَالتِثَامٍ بَيْنَ مُعْتَنِقٍ ... وَاعْتِنَاقٍ بَيْنَ مُلْتَثِمِ
بِكَلَامٍ رَقَّ جَانِبُهُ ... بَيْنَ مَنْثُورٍ وَمُنْتَظِمِ
فَتَعَاقَدْنَا يَدًا بِيَدٍ ... وَتَعَاهَدْنَا فَمًا لِفَمِ

يتذكَّرُ الشاعرُ هنا زمانَ قربِ الحبيبِ، والموطنَ الَّذي عاشا فيه وتواصلا، ويدعو لها بالسقيا، وأنْ ينهلَّ بها المطرُ دائمًا، ودعاءُ الشاعرِ لذلكَ الموطنِ بالسقيا دلَّ على الشعورِ النفسيِّ الإيجابيِّ الذي يُحدثُه تذكُّرُ ذلكَ الموطنِ، ويتضحُ بعدَ ذلكَ سببُ هذا الشعورِ، إنَّه الوصلُ الذي أُتيحَ لَه وحبيبِه هنالكَ من قبل، فهو يقولُ كم من شكوى كانتْ هناكَ لنا، وكم من نجوى، وكم التثامٍ كانَ لنا بينَ عناقينِ، واعتناقٍ بين التثامينِ، وكلامٍ رقيقٍ من منثورٍ ومنظومٍ، ويقولُ إنهما تعاقدا يدًا بيدٍ، وتعاهدا فمًا لفمٍ . إنَّ الشاعرَ هنا يتحدثُ عن علاقةِ حبٍّ وطيدةٍ متناغمةٍ، ولم يكنْ دونَ التواصُلِ فيها عوائقُ واقعيةٌ ولا نفسيةٌ . إنَّ الحديثَ في حالةِ الوصلِ هنا كانَ يسيرُ في اتجاهينِ : اتجاه الحَدِيثِ اللسانيِّ أو الكلامِ، واتجاه حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ ، ولقد تعاضدَ هذانِ الاتجاهانِ من الحَدِيثِ في تحقيقِ التواصلِ الجسديِّ والنفسيِّ على أفضلِ ما يكونُ، أمَّا التواصلُ اللسانيُّ جاءَ قويَّاً كثيفًا، فهناكَ شكاوى كثيرةٌ، وهناكَ نجوى كثيرةٌ، وكلامٌ رقيقٌ منه المنثورُ والمنظومُ، هنا إذن حَدِيثٌ لسانيٌّ كثيفٌ كما قلنا جاءَ في صورٍ مُختلفةٍ منه الشكوى، ومنه النجوى ومنه الكلامُ الرقيقُ المنثورُ، ومنه تناشدُ الأشعارِ، وكثافةُ هذا الكلامِ وتنوُّعُه يدلانِ على انفتاحِ المجالينِ المكانيِّ والزمانيِّ أمامَ الحبيبينِ، فهما يتحادثانِ ويتناجيانِ بكلِّ طمأنينةٍ وأريحيةٍ، يقولانِ ما يشاءانِ، ويفعلانِ ما يشاءانِ، وأمَّا التواصلُ عن طريقِ حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ فلقد جاءَ أيضًا قويًّا وكثيفًا جدًّا، فهناكَ التثامٌ وعناقٌ وتعاقدُ يدٍ بيدٍ، وتقبيلُ فمٍ لفمٍ كانَ بمثابةِ تعاهدٍ بينَ الحبيبينِ . إنَّ شروعَ الشاعرِ في ذكرِ حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ بعدَ قولِه: (فَلكم شكوى هناكَ لنا.. ولكم نجوى بها وكم) يدلُّ على أنَّهما على ما تبادلا من الشكوى والنجوى لم يجدا أنهما قد أشبعا حاجتيهما من الإفضاءِ، ولم يستطعْ الحَدِيثُ اللسانيُّ أنْ يؤدِّيَ فوقَ طاقتِه، فذهبا إلى حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ؛ للتعبيرِ عن مشاعرِ الحبِّ التي فاضتْ بها نُفوسُهما، كونه حَدِيثًا مستمرًا متواصلًا ، لا يتوقفُ عن التعبيرِ، ويعلنُ في كلِّ وقتٍ عن مكنوناتِ النفسِ والفكرِ[٤٦] ، ولجوءُ الحبيبينِ إلى هذا الحَدِيثِ الجسديِّ بهذهِ السهولةِ بعدَ الحَدِيثِ اللسانيِّ الحميميِّ يدلُّ على صدقِ حبِّهما، وعلى التفاهمِ العميقِ بين نفسيهما، ويدلُّ

على أنَّ كليهما يعترفُ في قرارةِ نفسِهِ أنَّهُ لا عيشَ له بدونِ الآخرِ، وأنَّ روحَ الآخرِ تمثِّلُ نصفَ روحِهِ، ولا بدَّ لهما من الالتحامِ ثانيةً؛ ولذلكَ لم يتعاليا على الحبِّ، ولم يُراوغا، ولم يُعاندا، ولم يتثاقلا في الاستجابةِ لنداءِ الحبِّ، بل سلَّما نفسيهما لهُ، وارتمى كلٌّ منهما بينَ يدي الآخرِ، وإنَّ التنوعَ في أساليبِ هذا الحَديثِ الجسديِّ بينَ التثامٍ واعتناقٍ، وتوسيطِ كلٍّ منهما بين الآخرِ، يدلُّ على الطاقةِ الشعوريةِ الكبيرةِ داخلَ كُلٍّ منهما، ويدلُّ على أنَّ الجسدَ يُريدُ أنْ يقولَ كلَّ شيءٍ للجسدِ الآخرِ، ويُريدُ كلُّ عضوٍ فيهِ أنْ يُقيمَ حوارًا على انفرادٍ معَ مُقابلِهِ في الجسدِ الآخرِ، ويُريدُ الجسدُ أيضًا أنْ يُقيمَ حوارًا كليًّا مع الجسدِ الآخرِ. إنَّ هذهِ العمليةَ عمليةَ الانتقالِ من العناقِ إلى الالتثامِ، ومن الالتثامِ إلى العناقِ، يمكنُ أن نُسميَها عمليةَ (استنطاقِ الجسدِ للجسدِ). إنَّ الشاعرَ هنا يُريدُ بعناقِ الحبيبِ والتثامِه أنْ يرى ردَّةَ فعلِهِ تجاهَ هذه التعبيراتِ الجسديةِ الموجهةِ ليتبينَ مدى حبِّهِ لهُ، وليرى أثرَ الحبِّ على جسدِ الحبيبِ كلِّهِ، وتدلُّ هذه الحركةُ الجسديةُ التفاعليةُ المتنوعةُ أيضًا أنَّ الشاعرَ هنا كانَ يشعُرُ بالسعادةِ البالغةِ، فهو لا يُصدِّقُ أنَّ الدهرَ يسمحُ له أنْ يكونَ حبيبُهُ بين يديهِ هكذا، وأنْ يكونَ لهُ منهُ ما يشاءُ، فهو يُريدُ أنْ يتأكدَ، فيُعانقُ ويلثمُ ويُقبِّلُ، وهو بعدَ أنْ تأكدَ يُعيدُ تلكَ الحركاتِ المتنوعةَ مرةً أخرى، يُريدُ أنْ يُبادرَ الدهرَ الذي ديدنُه أنْ يُفَرِّقَ بينَ الأحبابِ، فيجنيَ من قربِ الحبيبِ كلَّ ما أمكنَ له من الثمرِ، وهو بهذا الحَديثِ الجسديِّ المتنوعِ أيضًا يُريدُ أنْ يُعلمَ الحبيبَ أنَّ حبَّهُ لهُ بلغَ الغايةَ، إذ لم يستطعْ أنْ يُحيطَ لهُ بوصفِهِ، فأخذَ يُعبِّرُ له بحَديثِ الجسدِ كيف استطاعَ، ولم ينتهِ هذا الحَديثُ عندَ العناقِ و الالتثامِ، بل تشابكَ الحبيبانِ يدًا بيدٍ، وقبَّلا بعضَهما فمًا لفمٍ، ويبدو أنَّ هذا المشهدَ الأخيرَ من حَديثِ الجسدِ للجسدِ كانَ في لحظاتِ انتهاءِ هذا اللقاءِ الذي أُتيحَ للحبيبينِ فيه أنْ يرويا الحُبَّ بما استطاعا من حَديثِ اللسانِ و حَديثِ الجسدِ، وتسميةُ الشاعرِ لاشتباكِ الأيدي (تعاقدًا)، ولتقبيلِ الفمينِ (تعاهدًا) يعكسُ مدى الطمأنينةِ النفسيَّةِ التي يبثُّها، حَديثُ الجسدِ للجسدِ في نفوسِ المتحابين، حتى وإنْ تباعدتِ الأجسادُ فيما بعدُ فإنَّ حَديثَ الجسدِ للجسدِ أيامَ القربِ يكونُ دالًّا على الترابطِ الروحيِّ العميقِ الذي لا يمكنُ لشيءٍ أنْ يقطعَهُ أو يوهيَهُ، فالشاعرُ هنا على بعدِ المكانِ، وتبدلِ الزمانِ واثقٌ تمامَ الثقةِ في العهدِ الذي أخذاهُ بيديهما وفمويهما، وواثقٌ تمامَ الثقةِ في أنَّ الحبيبَ لن يُغيِّرَ ولن يبدلَ؛ فالعهودُ التي تقطعُها الأجسادُ في حَديثِ بعضِها لبعضٍ لا يُمكنُ أنْ تُخانَ أو تضيعَ.

إنَّ حَدِيثَ الجسدِ للجسدِ كما رأينا يكشفُ أغوارَ النفسِ، ويكونُ ذا تأثيرٍ كبيرٍ فيها، فهو يكونُ دليلًا على صدقِ الحبِّ، ويُحدثُ الطمأنينةَ النفسيَّةَ، ويُعبِّرُ عن الترابُطِ الروحيِّ، بل إنَّ الأثرَ الإيجابيَّ لهذا الحَدِيثِ يستمرُّ إلى أمدٍ بعيدٍ، حتى أنَّ المرءَ قد يغفرُ ذنوبَ من يُحبُّ بليلةٍ تركَ جسدَهُ فيها يُفضي إلى جسدِهِ ، كما كانَ الأمرُ معَ أبي بحر صفوانِ بن إدريس إذ قالَ (٤٧):

مَـــا زِلْـــتُ أَخْطُـــبُ للزَّمَـــانِ وِصَـــالَهُ ... حَتَّـــى دَنَـــا والبُعْـــدُ مِـــنْ عَادَاتِـــهِ
فَغَفَـــرْتُ ذَنْـــبَ الـــدَّهْرِ فِيـــــهِ لِلَيْلَـــةٍ ... سَـــتَرَتْ عَلَـــى مَـــا كَـــانَ مِـــنْ زَلَّاتِـــهِ
غَفَـــلَ الزَّمَـــانُ فَنِلْـــتُ مِنْـــهُ نَـــدْرَةً ... يَـــا لَيْتَـــهُ لَـــو دَامَ فِـــي غَفَلَاتِـــهِ
ضَاجَعْتُـــــهُ وَاللَّيْـــــلُ يُـــذْكِي تَحْتَـــهُ ... نَـــارَيْنِ مِـــنْ نَفَسِـــي وَمِـــنْ وَجَنَاتِـــهِ
بِتنَـــا نُشَعْشِـــعُ(٤٨) وَالعَفَـــافُ نَدِيمُنَـــــا(٤٩) ... خَمْـــرَيْنِ : مِـــنْ غَزَلِـــي وَمِـــنْ كَلِمَاتِـــهِ
فَضَـــمَمْتُهُ ضَـــمَّ البَخِيْـــلِ لِمَالِـــــــهِ ... أَحْنُـــو عَلَيْـــهِ مِـــنْ جَمِيـــعِ جِهَاتِـــهِ
أَوْثَقْتُـــهُ فِـــــــي سَاعِـــــدَيَّ لِأَنَّـــهُ ... ظَبْـــيٌ خَشِـــيْتُ عَلَيْـــهِ مِـــن فَلَتَاتِـــهِ
وَالقَلْـــبُ يَـــدْعُو أَنْ يُصَـــيَّرَ سَـــاعِدًا ... لِيَفُـــوزَ بِالآمَـــالِ فِـــي ضَـــمَّاتِهِ
حَتَّـــى إذا هَـــامَّ الكَـــرَى بِجُفُونِـــــهِ ... وَامْتَـــدَّ فِـــي عَضُـــدَيَّ طَـــوْعَ سِـــنَاتِهِ (٥٠)
عَـــــزَمَ(٥١) الغَـــرَامُ عَلَـــيَّ فِـــي تَقْبِيلِـــهِ ... فَنَفَضْـــتُ أَيْـــدِي الطَّـــوْعِ مِـــنْ عَزَمَاتِـــهِ
وَأَبَـــى عَفَـــافِي أَنْ أُقَبِّـــلَ ثِغْـــرَهُ ... وَالقَلْـــبُ مَطْـــوِيٌّ عَلَـــى جَمَرَاتِـــهِ
فَاعْجَـــبْ لِمُلْتَهَـــبِ الجَوَانِـــحِ غُلَّـــةً ... يَشْـــكُو الظَّمَـــأَ وَالمَـــاءُ فِـــي لَهَوَاتِـــهِ

هنا يتحدَّثُ الشاعرُ عن حبيبٍ له، ويقولُ إنَّه ما زالَ يخطبُ للزمانِ وصالَهُ، أي ما زالَ يطلبُ وصلَهُ ويتلطَّفُ إلى ذلكَ ما استطاعَ إليهِ سبيلًا حتى دنا ذلكَ الحبيبُ، ولقد دنا معَ أنَّهُ من عاداتِهِ البُعدُ، وهذا يدلُّ على المجهودِ الكبيرِ الذي بذلَهُ الشاعرُ، وحسنِ التلطفِ ليدنوَ هذا الحبيبُ، ويستطردُ قائلًا : إنَّهُ غفرَ ذنبَ الدهرِ بليلةٍ كانتْ لهُ مع ذلكَ الحبيبِ، تلكَ الليلةُ قد غطَّتْ على زلاتِ هذا الحبيبِ كلِّها، وهنا يعزفُ الشاعرُ على وترِ التشويقِ صادقًا ، فنتساءلُ أيُّ ليلةٍ تلكَ التي تجعلهُ يغفرُ للدهرِ والحبيبِ كليهما ذنوبَهما؟!، ماذا جرى بها؟!، فيستطردُ هو مجيبًا على الفورِ: لقد غفلَ الزمانُ فنلتُ منه ندرَةً، قاصدًا الحبيبَ بالطبعِ، ثمَ يتمنَّى قائلًا : (ليتَ هذا الزمانَ دامَ في غَفلاتِه)، وهذا يدلُّ على أنَّ الذي كانَ عظيمٌ، ويُكملُ الشاعرُ مزيحًا الأستارَ عن تلكَ الليلةِ قائلًا : لقد استلقى ذلكَ الحبيبُ بجانبي مستيقظًا، وكانَ الليلُ

يُذكي تحتَهُ نارينِ، نارَ أنفاسي ونارَ وجناتِهِ، ويُريدُ بنارِ وجناتِهِ، لونَها الأحمرَ الذي يصيرُ كاحمرارِ النارِ عند الخجلِ، ثمَّ يقولُ : لقد بتنا نخلطُ خمرينِ وكانَ العفافُ نديمَنا، أي أنَّهما لم يتجاوزا حدَّ العفافِ، والخمران اللتانِ بتنا نخلطُهما خمرٌ من غزلي، وخمرٌ من كلماتِهِ، ثمَّ قمتُ بضمِّهِ كما يضمُّ البخيلُ مالَهُ، وأنا أحرصُ على أنْ تُحيطَ يداي بهِ إحاطةً شاملةً، ثمَّ يقولُ لقد أحكمتُ ساعديَّ عليه، لأنَّه ظبيٌ وعادةُ الظباءِ النفورُ والتفلُّتُ، فخشيتُ أنْ يتفلتَ، حتى لقد دعا القلبُ أنْ يُحوَّلَ ساعدًا لِرؤيتِه ما قد نالَ الساعدينِ من الخيرِ الكثيرِ بضمِّ ذلكَ الحبيبِ، فضمُّهُ هو كلُّ الآمالِ، ويقولُ لقد ضممتُهُ إليَّ حتى سرى النومُ في جفونِهِ، وتمددَ جسدُهُ بين يديَّ وتراخى، ثمَّ يقولُ لقد عزمَ الغرامُ عليَّ في تقبيلِهِ، وهي فرصةٌ قد لا تتكررُ ثانيةً، والجميلُ ذاهبٌ في النومِ لا يشعرُ بشيءٍ، ونارُ الحبِّ في القلبِ على أشدِّها، لكنَّ الشاعرَ يرفُضُ بشدةٍ هذا العرضَ وما سوَّلتْ لهُ نفسُه، وأبى لهُ عفافُه أنْ يُقبِّلَ ثغرَهُ، على ما في قلبِهِ من جمراتِ الحبِّ والرغبةِ، ثمَّ يقولُ اعجبْ لأمرئٍ ملتهبِ الضلوعِ من العطشِ يشكو الظمأَ، والماءُ في لهواتِهِ يرفضُ أنْ يُسيغَهُ. يمكننا أنْ نُحاولَ الاقترابَ من نفسِ الشاعرِ في هذه الليلةِ، فنحاولُ استحضارَ الداخلَ النفسيَّ لرجلٍ أُتيحَ له أنْ يجدَ حبيبَهُ بين يديهِ بعدما كانَ ما كانَ من نفارٍ وعنادٍ . إنَّ سعادةَ الشاعرِ هنا سعادةٌ لا تُوصفُ، سعادةٌ يملأُها الإكبارُ لمشهدِ الحبيبِ وهو بينَ يديهِ، إنَّهُ من شدةِ إكبارِهِ لهذا المشهدِ شعرَ كأنَّه نالَ من الزمانِ بَدرَهُ، إنَّه يحملُ الامتنانَ الكبيرَ للقدرِ الذي أتاحَ لهُ هذه الفرصةَ، ودنوُّ هذا الحبيبِ النافرِ الذي من عاداتِهِ البعدُ دلَّ على أنَّ الشاعرَ ما زالَ يحتالُ لهُ الحيلَ اللطيفةَ حتى طاوعَهُ وانقادَ لهُ، وهو بلا شكَّ قد جاءَ بطيبِ نفسٍ وأريحيَّةٍ، ومن ثَمَّ وفي ظلِّ هذهِ الظروفِ النفسيَّةِ المناسبةِ لا بدَّ أنْ يقضيَ الشاعرُ معهُ ليلةً سعيدةً لا ينساها أبدًا، ويغفرُ بها للدهرِ وللجميلِ ذنوبَهما. إنَّ ليلةً كهذهِ لا بُدَّ أنْ يكونَ الحَديثُ فيها بنوعيهِ اللسانيِّ والجسديِّ السلطةُ الكبرى، أمَّا الحَديثُ اللسانيُّ فلا شكَّ أنَّه نالَ حظًّا وفيرًا من هذهِ الليلةِ، فالشاعرُ سيُحادثُ هذا الجميلَ وسيستنطقُه حتى يستأنسَ ولا يمَلَّ، وسيتلطَّفُ له في القولِ ويُسمِعُهُ ما يُحبُّ أنْ يسمعَ، ولقد تحدَّثَ الشاعرُ عن هذا فقالَ: إنَّهما باتا يخلطانِ خمرينِ، خمرًا من غزلِ الشاعرِ، وخمرًا من كلماتِ الجميلِ، وتشبيهُ كلاميهما بالخمرينِ، يدلُّ على الحالةِ النفسيةِ التي كانا فيها عندَ تبادُلِ هذا الكلامِ، فالحبيبُ الجميلُ قد لانَ وذلَّ وابتهجَ بكلماتِ الغزلِ وأبياتِهِ التي تدخلُ أذنَهُ من فمِ الشاعرِ، والشاعرُ يطيرُ قلبُهُ فرحًا وينتشي بكلماتِ الجميلِ الرقيقةِ، وصوتِه العذبِ، وهو قريبٌ منه، فكانتْ

حالتاهما تُشبهانِ ما يفعلُهُ الخمرُ بالشاربين، ولقد هيَّأَ هذا الحَدِيثُ اللسانيُّ الأجواءَ للحَدِيثِ الأعمقِ والأقوى، وهو حَدِيثُ الجسدِ للجسدِ، وهذا الحَدِيثُ هو غايةُ التواصلِ بين المحبينَ؛ لأنَّه يكشفُ دائمًا عما يُخفى من مشاعرَ في اللغةِ المنطوقةِ (٥٢)، ونجاحُ هذا الحَدِيثُ هو المؤشِّرُ في أنَّ اللقاءاتِ قد آتت أُكلَها، ولقد نجحَ حَدِيثُ الجسدِ للجسدِ هاهنا إلى حدٍّ بعيدٍ . إنَّ الشاعرَ يبدأُ الحديثَ عن حَدِيثِ الجسدينِ بذكرِ استلقائِه هو وذلكَ الحبيبِ متجاورينِ، وهذا التجاورُ الخطيرُ لم يكنْ ليتمَّ إلا بعدَ تهيئةٍ نفسيَّةٍ ، فهذا يدلُّ على الراحةِ النفسيةِ والاطمئنانِ اللذينِ تسربا إلى قلبِ الحبيبِ بفضلِ دهاءِ الشاعرِ وحكمتِهِ وصدقِ حبِّهِ، الذي جعلَهُ يُحسنُ التدبيرَ، هذا عن نفسِ الحبيبِ الجميلِ، لكن ماذا عن نفسِ الشاعرِ وقد استلقى حبيبُهُ إلى جانبِهِ أخيرًا، هل يُعقلُ أنْ يتملَّكَ الهدوءُ داخلَهُ النفسيَّ في هذه الحالةِ ؟. إنَّ حَدِيثَ الجسدِ للجسدِ في تلكَ اللحظاتِ يُنبئُنا عن نفسِ الشاعرِ حينئذٍ ، فهو يقولُ إنَّ الليلَ باتَ يُشعلُ تحتَ ذلكَ الحبيبِ نارينِ، نارًا من نَفَسِ الشاعرِ، ونارًا من وجنةِ ذلك الحبيبِ، أما نارُ وجنتِه فقد عرفناها، وأمَّا ما تحملُ لنا الدلالةَ النفسيةَ القويةَ فهي نارُ أنفاسِهِ، فهي تُنبئُ أنَّ قلبَ الشاعرِ يخفقُ بشدةٍ، وأنَّ الفرحَ يُسيطرُ على قلبِهِ، وأنَّ الرغبةَ بدأتْ تتغلغلُ فيه بقوةٍ، وهذهِ الرغبةُ يُحاولُ أنْ يدفعَها الشاعرُ ويُروِّضُها، وهذا المعتركُ النفسيُّ هو ما جعلَ نفَسَ الشاعرِ يخرجُ حارًّا هكذا، ويبدو أنَّ جسدَ الحبيبِ قد فهمَ ما صدرَ من جسدِ الشاعرِ، فكانَ ردَّةُ فعلِهِ على هذا أنْ احمرَّتْ وجنتاه، وهذا الاحمرارُ بمثابةِ تلميحٍ بسيطٍ من جسدِ الحبيبِ على إدراكِهِ ما يقولُهُ جسدُ الشاعرِ، وردُّ جسدِ الحبيبِ بهذا الاحمرارِ فقط، وعدمُ تبنِّي موقفٍ انفعاليٍّ أشدَّ من هذا يدلُّ على أنَّ الحبيبَ لم يُرِدْ أنْ يُضخِّمَ الأمرَ، ولم يُحبَّ أنْ يستفزَّ الشاعرَ فتخرُجُ الليلةُ عن إيقاعِها الهادئِ، فهو أدركَ أنَّ الشاعرَ سوفَ يتداركُ انفعالاتِهِ النفسيَّةَ ورغباتِه، ثمَّ بعد ذلكَ تعرَّضَ الشاعرُ للحَدِيثِ اللسانيِّ الذي عرضنا له، ثمَّ عادَ إلى حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ، بما يُوحي أنَّهما بعد أن تحدثا وسكرا بالحديثِ، أخذَ حَدِيثُ الجسدِ للجسدِ منحًى آخرَ، فالشاعرُ يتحدَّثُ أنَّه ضمَّ ذلكَ الحبيبَ ضمًّا، كما يضمُّ البخيلُ مالَه، وأنَّه قد جعلَ يديهِ محيطتين بهِ. إنَّ هذا التطورَ الذي تمَّ في هذا الحَدِيثِ دلَّ على عجزِ الشاعرِ أنْ يحتفظَ بالحديثِ في المستوى الذي دونَ هذا، إنَّه لم يستطعْ أنْ يصبرَ عن عناقِ حبيبِهِ وهو بينَ يديهِ، وتشبيهُ الشاعرِ ضمَّهُ لحبيبِه بضمِّ البخيلِ لمالِه، تنقلُ لنا صورةَ الضمِّ القويةَ التي حدثتْ، والأهمُّ من هذا أنَّها تكشفُ لنا عن نفسِ الشاعرِ حينئذٍ، إنَّه لا يكادُ يُصدِّقُ أنَّ ذلكَ الحبيبَ قد صارَ بين

يديهِ، ولذلكَ أرادَ أنْ يضمَّهُ لتطمئنَّ نفسُهُ، وضمُّهُ لهُ بهذهِ الطريقةِ تدلُّ على أنَّ الشاعرَ قد عانى كثيرًا قبلَ هذهِ اللحظةِ، فهو في كلِّ مرةٍ كانَ يرى فيها الحبيبُ كانَ يتمنى لو يستطيعُ أنْ يضُمَّهُ إليهِ، ولكن كانَ يُدركُ أنَّهُ لا يستطيعُ، فقد كانتْ الظروفُ لا تُلائمُ، وكانَ الحبيبُ يبعُدُ عنه ولا يهبُ له فرصةً يُعبِّرُ له فيها عن حجمِ حبِّهِ، فكانَ الشاعرُ يُؤسِفُهُ ذلكَ جدًّا، فهو من شدةِ حبِّهِ لهُ كانَ يشعُرُ أنَّه خُلقَ لهُ هو، وعزَّ عليه أنْ يرى ما خُلقَ له مُباحًا للناس، يُجيلون فيه عيونَهم، ويُحادثونَه، ولذلكَ لما وُجِدَ هذا الحبيبُ بينَ يديهِ ضمَّهُ كما يضمُّ المرءُ ضالتَهُ، حينَ يجدُها بعدَ طولِ غيابٍ، ولقد حنا عليهِ، وأحاطَ جسدَهُ بيديهِ من جميعِ جهاتِهِ، رغبةً في أنْ لا يضيعَ منهُ ويتركَهُ مرَّةً أخرى. لقد كانَ ضمَّاً بريئًا صادقًا مُفعمًا بالحنانِ، وهو ما لمسَه ذلكَ الحبيبُ وفهمَهُ جيِّدًا، لذلكَ لم يعترضْ ولم يُحاولْ أن يتقَّلتَ، بل هو تركَ نفسَهُ ليدَي الشاعرِ، كأنَّهُ حينَ لمسَ ما لمس من صدقِ حبِّهِ وشدَّتِهِ، أرادَ أنْ يعتذرَ لهُ عما كانَ يراهُ منهُ من صدودٍ وإعراضٍ، فتركَ جسدَهُ يسمعُ من جسدِهِ كلَّ ما يقولُ ويقبلُهُ ، لقد بسطَ حَدِيثُ الجسدِ للجسدِ هنا السلامَ النفسيَّ بينَ النفسين، حتى أنَّ الشاعرَ أحكمَ يديهِ على ذلكَ الحبيبِ كي لا يتفلَّتَ منهُ، فلم يجدْ منهُ مقاومةً، وقد كانَ بالأمسِ القريبِ عنيدًا نافرًا . لقد بثَّ صدقُ حَدِيثِ جسدِ الشاعرِ لجسدِ الحبيبِ الثقةَ والطُمأنينةَ في نفسِهِ، حتى أنَّهُ تركَ نفسَهُ بين يدَي الشاعرِ حتى غلبَهُ النومُ فتمدَّدَ جسدُهُ واسترخى ، ونومُ الحبيبِ بينَ يدي الشاعرِ لم يُغلقْ بابَ حَدِيثِ الجسدِ للجسدِ، بل جسدُ الشاعرِ لديهِ ما لم يقلْهُ بعدُ، فهو حينَ رأى حبيبَهُ نائمًا بين يديهِ أدركَ الجسدُ أنَّ هذا هو الوقتُ المناسبُ لقولِ ما لم يقلْهُ للجسدِ الآخرِ، وهو التقبيلُ، وإذا بالرغبةِ تشتعلُ في الجسدِ، ويُقدمُ على أخطرِ مرحلةٍ من مراحلِ حديثِهِ للجسدِ الآخرِ، وهنا يصطدمُ الجسدُ بالأخلاقِ وقِيمِ النفسِ، فلا يستطيعُ أنْ يتمادى إنْ انتصرَ صاحبُهُ للقيمِ، كما فعلَ الشاعرُ هنا، حتى وإنْ كلَّفَهُ هذا بعضَ المشقةِ، مما يدلُّ على أنَّ حَدِيثَ الجسدِ للجسدِ لا يستطيعُ أنْ يخرُجَ عن الأُطرِ العامَّةِ التي ترسمُها له النفسُ [٥٣].

لقد وجدنا في هذا النصِّ المفعمِ بحديثِ الجسدِ للجسدِ كيفَ نجحَ ذلكَ الحديثُ إلى أبعدِ حدٍّ في تقديمِ صورٍ دقيقةٍ عن الداخلِ النفسيِّ ، وكيفَ أصبحَ أداةً للتفاهمِ بينَ النفسينِ ، وكيفَ حقَّقَ الطُمأنينَةَ والثقةَ. وشبيهةٌ بأبياتِ أبي بحرٍ التجيبي السابقةُ أبياتُ ابن بقي القرطبيِّ القائلةُ [٥٤]:

بِـأَبِي غَـــــزَالٌ غَازَلَتْـــــهُ مُقْلَتِـي ... بَـيْنَ العُـذَيْبِ [٥٥] وَبَـيْنَ شَـطَّيْ بَـــارِقِ [٥٦]
وَسَـأَلْتُ مِنْـهُ زِيَـارةً تَشْـفِي الجَـوَى [٥٧] ... فَأَجَـابَنِي مِنْــــهُ بِوَعْـــدٍ صَــــادِقِ
بِتْنَـا وَنَحْـنُ مِـنَ الـدُّجَى فِـي لُجَّـةٍ ... وَمِـنَ النُّجُـومِ الزُّهْـرِ تَحْـتَ سُـرَادِقِ [٥٨]
عَاطَيْتُـهُ [٥٩] واللَّيْـــلُ يَسْـحَبُ ذَيْلَـهُ ... صَـهْبَاءَ كَالمِسْـكِ الفَتِيـقِ [٦٠] لِنَاشِـقِ [٦١]
وَضَـمَمْتُهُ ضَـــمَّ الكَمِـيِّ [٦٢] لِسَـــيْفِهِ ... وَذُؤَابَتَـاهُ [٦٣] حَمَائِـلٌ [٦٤] فـــي عَـاتِقِي
حَتَّـى إذَا أَخَـــذَتْ بِـهِ سِـنَةُ الكَـرَى ... زَحْزَحْتُــهُ عَنِّــي وَكَـــانَ مُعَــــانِقِي
أَبْعَدْتُـــهُ عَـــنْ أَضْــلُعٍ تَشْتَاقُــــهُ ... كَــيْلَا يَنَـامَ عَلَـى وِسَـادٍ خَـافِقِ
لمَّــا رَأَيْـتُ اللَّيْــلَ آخِــرَ عَهْـــدِهِ ... قَــدْ شَــابَ فِــي لِمَــمٍ لَــهُ ومَفَــارِقِ
وَدَّعــتُ مَــنْ أَهْــوَى وَقُلْــتُ تأسُّــفًا ... أَعْــزِزْ عَلَــيَّ بــأَنْ أراكَ مُفَـــارِقِي

هنا يتحدثُ الشاعرُ أيضًا عن جميلٍ استطاعَ أنْ يستدرجَهُ إلى دارِهِ ، ويبدو أنَّهُ لم يجدْ في هذا عناءً ، فذلكَ الغزالُ كانَ مطواعًا، فقد فُتنَ الشاعرُ بجمالِه فغازلَهُ، وسألَهُ زيارةً تشفي وجدَهُ وحرقتَهُ، فوعدَهُ الجميلُ أنْ يزورَهُ ووفى بوعدِهِ، ثمَّ يبدأُ في وصفِ ليلتِهما، فيقولُ إنَّهما باتا من الدجى في لجةٍ، يريدُ حينَ اشتدَّ ظلامُ الليلِ، وقد أحاطتْ بهما نجومُ السماءِ وكانتْ لهما سقفًا، ولقد ناولتُهُ خمرًا طيبةَ الرائحةِ كالمسكِ للناشِقِ ، ثمَّ قمتُ بضمِّهِ كما يَضمُّ الفارسُ البطلُ سيفَهُ، وكانتْ ذؤابتاهُ في عاتقي كحمائلِ السيفِ، حتَّى إذا أخذَ فيهِ النومُ زحزحتهُ عنِّي وكانَ مُعانِقًا لي، لقد أبعدتُ رأسَهُ عن صدري؛ لأنَّ قلبي يخفقُ فيها بشدةٍ، فلم أردْ أنْ ينامَ على وسادٍ مضطربٍ قلقٍ، ولمَّا رأيتُ الليلَ قد انقضى وظهرَ الشيبُ في لممِهِ ومفارقِهِ – وهذا صورةٌ كنائيةٌ عن الإيذان بقدومِ الصباحِ بعدَ مغادرةِ الشبابِ الذي رمزَ إليهِ الشاعرُ بسوادِ الليلِ في مقابلةٍ عكسيةٍ لونيةٍ – قمتُ بتوديعِ الغزالِ الجميلِ في أسفٍ قائلًا بلسانِ مقالِهِ أو لسانِ حالِهِ أو كليهما : ما أصعبَ فراقَكَ عليَّ . هذه الأبياتُ – كما نرى – شبيهةٌ جدًّا بأبياتِ أبي بحرٍ التجيبيِّ السابقةِ، ولا تختلفُ تفاصيلُ ليلةِ هذا عن ليلةِ ذاكَ كثيرًا، بل لا يبعُدُ أنْ يكونَ المتأخِّرُ منهما قد أخذَ من المتقدِّمِ ، وهذا لا يمنعُ أنَّ هناكَ اختلافاتٍ جوهريَّةً، فأبو بحرٍ التجيبيُّ كانَ له ماضٍ مع رفيقِ ليلتِه، وكانَ يتمنَّى أنْ يرضى عنه الدهرُ ويسعدهُ بليلةِ اجتماعٍ معهُ، أمَّا شاعرُنا ابنُ بقي فيبدو بحسبِ ما يسوقُ من الوقائعِ أنَّهُ لم يكنْ قديمَ عهدٍ برفيقِ ليلتِه، بل هو رأى جميلًا فاتنًا كالغزالِ في موضعٍ معينٍ، فغازلَهُ وتلطَّفَ لهُ فاستأنسَ الغزالُ بهِ، فسألَهُ الشاعرُ أنْ يَزورَهُ في بيتِهِ، ولم يكنْ لِيُقدمَ على هذه الخطوةِ وهذا الطلبِ إلا للأريحيةِ

ولينِ الجانبِ اللذين وجدَهما في الجميلِ، وقد أصابَ ظنُّهُ، فوعدَهُ الغلامُ بالزيارةِ وصدقَهُ، ومُقدِّماتُ الزيارةِ تُقدمُّ دلائلَ نفسيَّةً عن الشاعرِ، ففتنتُهُ بذاكَ الجميلِ كالغزالِ، ومغازلتُه له دليلٌ على التعطُّشِ العاطفيِّ الذي كانَ يُعاني منهُ، ودليلٌ على شدةِ تأثيرِ الجمالِ في نفسِهِ، وسرعةُ دعوتِهِ لهذا الجميلِ أنْ يزورَهُ، تدلُّ على رغبتِهِ الجامحةِ في إرواءِ تعطشِهِ العاطفيِّ، وعلى أنَّه كان يعاني من الوحدةِ، ويحتاجُ إلى من يُؤنِسهُ، ووسطَ هذه الأجواءِ النفسيَّةِ يمكننا أنْ نأوِّلَ مفرداتِ حوارٍ أو حديثِ الجسدِ للجسدِ في تلك الليلةِ على وفقِ لغةٍ شعريةٍ فاعلةٍ مؤثرةٍ، لقد صدقَ الغزالُ وعدَه كما قلنا وزارَ الشاعرَ، ولقد ساعدَهما الوقتُ ، فالليلُ كانَ في أشدِّ ساعاتِ حلوكتِهِ ، مما يعني أنَّهما سيقضيانِ ليلتَهما في راحةٍ واطمئنانٍ، لقد عمَّ الأُنسُ ليلتَهما، حتى أنَّهما أخذا يتعاطيانِ الخمرَ، فلمَّا لمسَ الشاعرُ الاستئناسَ القويَّ من جانبِ الجميلِ واطمأنَّ إلى ذلكَ، ورأى من لينِ جانبِهِ أكثرَ مما كانَ رأى ؛ فتحَ البابَ على مصراعيهِ أمامَ حديثِ الجسدِ للجسدِ، فقامَ بضمِّ الجميلِ إليهِ ضمًّا كما يضمُّ الكميُّ سيفَه، وهذا التشبيهُ لحديثِ العناقِ يكشفُ لنا كثيرًا من الداخلِ النفسيِّ للشاعرِ، فهذا الذي – كما قلنا– كان يعاني من التعطشِ العاطفيِّ والوحدةِ، بلغتْ سعادتُه مبلغًا عظيمًا حينَ وجدَ هذا الجميلَ بينَ يديه، وأرادَ أنْ يُزيلَ آثارَ التعطشِ العاطفيِّ داخلَهُ، وآثارَ الشعورِ بالوحدةِ، فقامَ بمعانقةِ الجميلِ، معانقةَ الفارسِ لسيفِه، فسيفُ الفارسِ هو الشيءُ الذي يدفعُ بهِ عن نفسِهِ ويحتمي بهِ، لذلكَ فهو حبيبٌ إليهِ، ومن هذا الوجهِ جاءَ هذا التشبيهُ ، فبقربِ ذلكَ الغزالِ الجميلِ دفعَ الشاعرُ عن نفسِهِ أحزانَ الوحدةِ، والتعطشَ العاطفيَّ، والجوى، وكأنَّهُ بهذا العناقِ يُخبرُ الجميلَ أنَّه كانَ يبحثُ عنهُ من زمنٍ، وأنَّه سعيدٌ كلَّ السعادةِ لأنَّهُ وجدَهُ، ويطلبُ منهُ ألَّا يُفارقَه، وقولُ الشاعرِ: (وذؤابتاهُ حمائلٌ في عاتقي) تدلُّ على أنَّ ذلكَ الجميلَ قد تفَّهمَ ما نمَّ عنهُ جسدُ الشاعرِ بعناقِهِ، وأنَّهُ اطمأنَّ إلى هذا الدفءِ الذي استشعرَهُ من معانقتِهِ لهُ، فتركَ نفسَهُ بينَ يديهِ، واسترختْ ذؤابتاه على عاتقيهِ، حتَّى غلبَهُ النومُ كما غلبَ صاحبَ أبي بحرٍ. إنَّ غلبةَ النومِ على المُعانَقِ هنا وهناكَ، تدلُّ دلالةً قاطعةً على قدرةِ الجسدِ الكبيرةِ على إيصالِ المشاعرِ والانفعالاتِ بصدقٍ وقوةٍ [٦٥]، فرغبةُ الشاعرِ في البوحِ بما في داخلِهِ، وإبلاغِ الجميلِ بحاجتِهِ النفسيةِ إلى قربِهِ، وسعادتِهِ بذلكَ، لم يكلفْهُ إلا عناقًا واحدًا طويلًا، وحينَ استقبلَ جسدُ الجميلِ هذا الحديثَ من جسدِ الشاعرِ فهمَهُ حقَّ الفهمِ، فاطمأنَّ حقَّ الطُمأنينةِ فنامَ، ولم ينتهِ الحوارُ الهامسُ بينَ الجسدِ وصنوهِ الآخرَ ودلالاتهُ النفسيَّةُ هنا. إنَّ الشاعرَ بعدَ أنْ نامَ ذلكَ الجميلَ لم يتركْهُ على صدرِهِ،

بل قامَ بزحزحتِهِ عنهُ، إنَّ هذهِ الزحزحةَ تُمثِّلُ حديثَ جسدٍ لجسدٍ، وتحملُ دلالاتٍ نفسيةً مهمةٍ، فزحزحةُ الشاعرِ لهذا الجميلِ النائمِ تدلُّ على براءةِ شعورِ الشاعرِ نحوَهُ، فهو لم تسوِّلْ لهُ نفسُهُ مالا يليقُ، ولم تعزمْ عليهِ بتقبيلِهِ كما جرى الأمرُ مع الشاعرِ أبي بحرٍ، إنَّ زحزحةَ الشاعرِ لهذا الجميلِ هنا تُحيلُنا إلى صورةِ الوالدِ حينَ يحملُ ولدَهُ الصغيرَ النائمَ إلى سريرِهِ وموضعِ نومِهِ، إذن هذا الجزءُ من حديثِ الجسدِ للجسدِ يعكسُ لنا مشاعرَ الأُبوَّةِ التي تسكنُ قلبَ الشاعرِ، وهذهِ المشاعرُ الأبويَّةُ قوامُها طاقةُ الحبِّ والحنانِ الكبيرةُ المتغلغلةُ في اعماقِ قلبِ الشاعرِ، وهو ما يؤكِّدهُ قولهُ بعدَ ذلكَ:

أَبْعَدْتُـــهُ عَـــنْ أَضْـــلُعٍ تَشْـــتَاقُهُ ... كَـــيْلَا يَنَـــامَ عَلَـــى وِسَـــادٍ خَـــافِقِ

إنَّه يُبعدُ الجميلَ النائمَ عن صدرِهِ خشيَة أنْ يُقلقَهُ خفقانُ قلبِهِ واضطرابهُ . إنَّ طاقةَ الحبِّ والحنانِ الهائلةَ هذه هي كلمةُ السرِّ الذي جعلتْ الشاعرَ يُغازِلَ هذا الجميلَ ، ويدعوهُ إلى زيارتِهِ ، إنَّهُ أرادَ أنْ يُفرِغَ هذهِ الطاقةَ ، ويُشبعَ هذهِ الرغبةَ البريئةَ الساميةَ ، وكانَ أفضلَ وسيلةٍ للكشفِ عن هذه الرغبةِ والتعبيرِ عنها وإشباعِها حديثُ الجسدِ للجسدِ ، إنَّه حديثٌ يروي القلوبَ ، ويُطمئنُ النفوسَ ، ويُحققُ الرغباتِ ، والسعادةَ النفسيةَ والرضا الرُّوحيَّ ، وهذا ما حدا بابنِ بقي أنْ يقولَ في موضعٍ آخرَ(٦٦):

مَـــنْ لَـــمْ يُعَـــانِقْ غَـــزَالًا فِـــي مَغَازِلِـــهِ ... مَـــا بَـــيْنَ مُمْتَنِـــعٍ طَـــوْرًا ومُنْفَعِـــلِ

فَمَـــا قَضَـــى مِـــنْ لُبَانَـــاتِ الصِّـــبَا وَطَـــرًا ... وَلا تَنَـــزَّهَ فِـــــي رَوْضٍ مِـــنَ الجَـــذَلِ

وما قالَه ابن بقي هنا هو لسانُ حالِ مُعْظَمِ شُعرائنا ، سواءٌ الذينَ أُتيحَ لهم أنْ يُقيمُوا حديثًا بين أجسادِهم وأجسادِ من يُحبون أو الذينَ كانوا يسعونَ لذلكَ ويطلبونهُ ، مُدركينَ أنَّه الوسيلةُ المُثلى للتواصلِ النفسيِّ ، فهو يستطيعُ أنْ يقولَ كلَّ شيءٍ عن الإنسانِ ، حتى ما يخشى من قولِهِ ، أو ما يستحي منهُ ، أو يعجزُ عنهُ .

الخاتمة

- إنَّ حديثَ الجسدِ للجسدِ بوساطةِ العيونِ عبَّرَ عن التوافقِ النفسيِّ، والاختلافِ النفسيِّ كذلكَ، واستطاعَ أنْ يُعبِّرَ عن المواقفِ النفسيةِ بدقةٍ ، ووضوحٍ، ونابَ عن الحديثِ اللسانيِّ الطويلِ ما عكسَ خاصيةَ (البوحِ والمكاشفةِ) التي اتصفَ بها .

- إنَّ حديثَ الجسدِ للجسدِ حينَ ينفتحُ له المجالُ ، ويقولُ ما يُريدُ أنْ يقولَ ، يُحدثُ الطمأنينةَ النفسيَّةَ ، ويخلُقُ الشعورَ بالرضا ، ويعززُ الثقةَ في النفسِ ، ويُغني عن كثيرٍ من الكلامِ ، كما أنَّه يكشفُ أغوارَ النفسِ. إنَّهُ الوسيلةُ المثلى للتواصلِ النفسيِّ الصَادِقِ
- إنَّ حَدِيثَ الجسدِ كما رأينا كانَ بابًا لمنشأ العَلاقاتِ ، ودليلًا على مدى قوتِها ، وضمانًا لاستمراريتِها ، إنَّه جسرٌ متينٌ من إنسانٍ إلى آخرَ ، عبرَ هاجسٍ نفسيٍّ فطريٍّ ، يمكنُ أنْ يدخلَ في إطارِ توارِدِ الخواطرِ ، بل هو نمطٌ من التعالقِ الوثيقِ بحكمِ الجنسِ الإنسانيِّ ، على الرغمِ من تنوعِ ثقافاتِهِ وبيئاتِهِ .

Abstract

Denotative Communication and its Inductive Depth in Andalusian Poetry

(.Lecturer. Muhammad Taha Jawad Yassin Al-Saadi (Ph.D

University of Diyala - Al Miqdad College of Education

The researcher approached this study to shed light carefully on the body language , or the silent communication, resounding sound , the unspoken between the body of the beloved and his sweetheart, and the size of its impact on the other. It discusses the way employed in the Andalusian poetry in both eras of Al-Murabitin and Al-Muwahhideen. Since this communication is of great importance in expressing what is kept in the soul, it induces reassurance, creating an atmosphere of contentment, and enhances the self-confidence, especially when verbal communication is difficult when there is some impediment, or it may be resorted to because this indicative communication is more authentic, more effective and even more stimulating of feelings than the spoken one. As the speaker can pretend in direct speech, and hiding what he does not wish to show it, taking into consideration that indicative communication carries a real psychological impact, and reveals that strongly. This makes it more influential in the same recipient, not to doubt sincerity of intentions, the size of love, longing, the desire between the two parties .

Thus, this study attempts to reveal what the Andalusian poet employed of physical signs which speak a lot about what he keeps in heart, and in the heart of the other from psychological aspect , while not ignoring the meaning of the meaning in the process of interpolating the poetic text. In addition to highlighting the rhetoric arts and types that have contributed to drawing the aesthetic image of the other , in order to reach the largest number of connotations, the perceptions that s/he carries in his/her body, and the extent of the impact that s/he imposed on the recipient , the extent of response to it, and the interaction with it.

الهوامش

(١) ينظر : علم النفس الاجتماعي – وليم و. لامبرت ، و ولاس إ . لامبرت : ١٧٨ .

(٢) لغة الجسد في أشعار الصعاليك ، تجليات النفس واثرها في الصورة : ٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٧ .

(٤) المرجع الأكيد في لغة الجسد ، آلان وباربارا بييز : ٧ .

(٥) لغة الجسد في القرآن الكريم ، أعداد : اسامة جميل عبد الغني ، رسالة ماجستير : ٢٢ .

(٦) سوسيولوجيا الجسد ، المفاهيم والإشكالات من الحداثة إلى العولمة : ١٧ .

(٧) ينظر : المرجع الأكيد في لغة الجسد : ١١ .

(٨) سوسيولوجيا الجسد : ١٦ .

(٩) مسند الامام أحمد بن حنبل : (٢٢١٥٣) ، ٣٦/ ٤٧٤ .

(١٠) المصدر نفسه : (٢١٥١٩) ، ٣٥/ ٤٠٨ .

(١١) الأدب المفرد ، لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦) : (٨٩١) ، ٣٠٧ .

(١٢) المرجع الأكيد في لغة الجسد : ١٢ .

(١٣) ينظر : لغة الجسد في الشعر العربي قراءة أدبية بلاغية : ٢٠ .

(١٤) ينظر : ديوان الأعمى التطيلي (ت ٥٢٥هـ) : ٩٥ .

(١٥) الْخَفرُ : شِدَّة الحَيَاء . ينظر : تهذيب اللغة : (مادة خفر) ، ٧/ ١٥٣ .

(١٦) لغة الجسدِ النفسيةِ ، جوزيف ميسنجر : ٢٥٩ .

(١٧) ينظر : وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي : ١٢٨/٣ .

(١٨) المرجع الأكيد في لغة الجسد : ٣٧٩ .

(١٩) ينظر : ديوان الجزار السرقسطي المعروف بـ(روضة المَحاسن وعمدة المُحاسن) : ١٣٦ .

(٢٠) اللِّمامُ : اللِّقَاءُ اليَسِيرُ . ينظر : تاج العروس : (مادة لمم) ، ٣٣/ ٤٣٩ .

(٢١) ذي طلوح : واد في جزيرةِ العربِ. ينظر: معجم ما استعجم من اسماء البلاد: ٣/ ٧٦٩ .

(٢٢) اللِّوى : مُنْقَطَعُ الرَّملة . ينظر : لسان العرب : (مادة لوي) ، ٢٦٣/١٥ .

(٢٣) أريك : موضع في جزيرة العرب. ينظر : معجم ما استعجم من اسماء البلاد: ١٤٤/١ .

(٢٤) مراسم : بمعنى (الرسم) وهو: الأَثَرُ ، وَقِيلَ: بَقِيَّةُ الأَثَر. ينظر: لسان العرب: (مادة رسم) ، ٢٤١/١٢

(٢٥) الوُسامِ: جمع (وسيم) وهو: الثَّابِتُ الحُسْنِ. ينظر: تاج العروس: (مادة وسم)، ٤٧/٣٤ .

(٢٦) الخريدة : البكر التي لم تُمْسَسْ قَطُّ . ينظر : تهذيب اللغة : (مادة خرد) ، ٧/ ١٢١ .

(٢٧) الرُّود : مخفف (الرؤد) وهي: الشابة الحسنة. ينظر: لسان العرب: (مادة رأد)، ١٦٩/٣ .

(٢٨) خلوب : من الخلابة ، والخِلابَةُ: أن تَخْلُبَ المرأة قلب الرجل بألطف القول وأخْلَبِهِ. وامرأةٌ خَلاّبةٌ أي : مذهبة للفؤاد ، ينظر : كتاب العين : (مادة خلب) ، ٢٧٠/٤ .

([٢٩]) ينظر : لغة الجسد النفسية : ٢٥٦ .

([٣٠]) ينظر : ديوان الحكم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الدّاني (٤٦٠هـ– ٥٢٩هـ) : ١٤٦ .

([٣١]) النوى : التَّحوُّل مِن دارٍ إِلَى دارٍ غَيرهَا. ينظر: تهذيب اللغة : (مادة نوى) ، ١٥/ ٣٩٩ .

([٣٢]) الجَوَى : شِدَّةِ الوَجْدِ مِنْ عِشْقٍ أَو حُزْنٍ . ينظر : لسان العرب : (مادة جوا) ، ١٤/ ١٥٨ .

([٣٣]) الشُّؤُونُ: عُروق الدُّموع مِنَ الرأْس إِلى الْعَيْنِ. ينظر: لسان العرب: (مادة شأن)، ١٣/٢٣٠.

([٣٤]) لغة الجسد النفسية : ٢٥٨ .

([٣٥]) حفريات في الجسد المقموع ، مقاربة سوسيولوجية ثقافية : ١١٤ .

([٣٦]) ينظر : ديوان الأمير أبي الربيع سلمان بن عبد الله الموحد (ت ٦٠٠ هـ) : ٩٢ .

([٣٧]) المَطِيُّ: جَمْعُ مَطِيّة : النَّاقَةُ الَّتِي يُركب مَطاها أَي ظهرها. ينظر: لسان العرب : (مادة مطط)، ٤٠٤/٧ .

([٣٨]) الرُّضابُ : الريقُ . ينظر : لسان العرب : (مادة رضب) ، ١/ ٤١٨ .

([٣٩]) شطت : بعدُت . ينظر : القاموس المحيط : (مادة شطَّ) ، ٦٧٤ .

([٤٠]) ينظر : الجسد والمجتمع : دراسة انثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد : ٩٢ .

([٤١]) ينظر أيضًا مثل هذا لأبي علي بن كسرى في : شعر أبي علي بن كسرى المالقي (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ): ١٣١ . وينظر كذلك لابن لبالِ الشريشي في: ابن لبال الشريشي : ٨٦ .

([٤٢]) ينظر : ديوان ابن خفاجة : ١٤٣ .

([٤٣]) طلح الجزع والسلم : موضعان . ينظر : معجم ما استعجم من اسماء البلاد : (٤٥٥/٢) ، ٧٤٩/٣ .

([٤٤]) منهل : منصب بشدة . ينظر : لسان العرب : (مادة نهل) ، ١١/ ٦٨١ .

([٤٥]) منسجم : انسَجَمَ الدَّمعُ وَالْمَاء فَهُوَ مُنْسَجِمٌ إِذا انصَبّ، وسَجّمَتِ السَّحَابَةُ مَطَرَهَا تَسجِيماً، وتَسْجاماً إِذا صَبَّته . ينظر: تهذيب اللغة : (مادة سجم) ، ١٠/ ٣١٧ .

([٤٦]) ينظر : الاشارات الجسمية : دراسة لغوية لظاهرة استعمال اعضاء الجسد في : ٣٣ .

([٤٧]) ينظر : شعر صفوان بن إدريس المرسي (– ٥٩٨هـ) : ٢٠٤ . وينظر : زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر : ١٤٧ .

([٤٨]) شَعْشَعْتُ الشرابَ : مزجتُه بالماء . ينظر: الصحاح تاج اللغة : (مادة شعع)، ١٢٣٧/٣ .

([٤٩]) النَّدِيمُ : الْمُنَادِمُ عَلَى الشُّرْبِ . ينظر : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (مادة ندم)، ٢/ ٥٩٨

([٥٠]) سنات : جمع سِنة : وهي النعاس . ينظر : المصباح المنير : (مادة وسن) ، ٢/ ٦٦٠ .

([٥١]) عزم عليه : أَمَرَهُ أَمْرًا جِدًّا . ينظر : تاج العروس : (مادة عزم) ، ٣٣/ ٨٩ .

([٥٢]) ينظر : الاشارات الجسمية : دراسة لغوية لظاهرة استعمال اعضاء الجسد في التواصل : ٣٣ .

([٥٣]) هناك أمثلةٌ اتخذَ فيها حديثُ الجسدِ للجسد منحى مُخالفًا ، ينظر – مثلًا – لأبي علي بن كسرى المالقي في : شعر أبي علي بن كسرى المالقي (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ) : ١٣٠ .

([٥٤]) ينظر : ابن بقي القرطبي ، حياته وشعره : ١٣٨ .

([٥٥]) الْعُذَيْبُ : بضمّ أوّله ، تصغير عذب : واد بظاهر الكوفة . ينظر : معجم ما استعجم : ٩٢٧/٣ .

([٥٦]) بارق : مَوضِع بِالسَّوَادِ قريب من الْكُوفَة . ينظر : جمهرة اللغة : (مادة برق)، ١/ ٣٢٢ .

([٥٧]) الجوى : الحرقة وشدَّة الوجد من عشقٍ أو حزنٍ. ينظر: الصحاح تاج اللغة : (مادة جوا) ، ٢٣٠٦/٦ .

([٥٨]) السُّرادِقُ : كُلُّ مَا أحاطَ بشيءٍ . ينظر : لسان العرب : (مادة سردق) ، ١٠/ ١٥٧ .

([٥٩]) المُعاطاةُ : المناولة . ينظر : الصحاح تاج اللغة : (مادة عطا) ، ٦/ ٢٤٣١ .

([٦٠]) الفتيق : المطيبُ المخلوطُ بغيرِه . ينظر : لسان العرب : (مادة فتق) ، ٢٩٨/١٠ .

([٦١]) ناشق : من نشقَ بمعنى شمَّ . ينظر : المصدر نفسه : (مادة نشق) ، ٣٥٣/١٠ .

([٦٢]) الكميُّ : الشُّجَاعُ المُقْدِمُ الجَرِيء . ينظر : المصدر نفسه : (مادة كمي) ، ٢٣٢/١٥.

([٦٣]) الذؤابة : الضَّفِيرَةُ مِنْ الشَّعْرِ إذَا كَانَتْ مُرْسَلَةً . ينظر : المصباح المنير : (مادة ذوب) ، ٢١١/١ .

([٦٤]) الحمائل : جمع حِمالة ، وهي عِلاقةُ السيفِ . ينظر : تهذيب اللغة : (مادة حمل) ، ٦٠/٥ .

([٦٥]) ينظر : وصف الجسد في الشعر الجاهلي : ٢٤٨ .

([٦٦]) ينظر : ابن بقي القرطبي ، حياته وشعره : ١٤٠ .

المصادرُ والمراجعُ

- ابن بقي القرطبي ، حياته وشعره ، جمع وتحقيق : د. محمد مجيد السعيد ، مجلة المورد ، العدد السابع، المجلد الأول ، ١٩٧٨م .
- ابن لبال الشريشي ، تأليف : محمد بن شريفة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، د.ط ، ١٩٩٦م .
- الأدب المفرد ، لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦) ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م .
- الاشارات الجسمية : دراسة لغوية لظاهرة استعمال اعضاء الجسد في التواصل ، د. كريم زكي حسام الدين ، دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ، ط٢ ، د. ت .
- تاج العروس ، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) ، تح : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، القاهرة – مصر ، د.ط ، د.ت .
- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن احمد الازهري الهروي (ت٣٧٠هـ) ، تح : محمد عوض مرعب، دار احياء التراث العربي ، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١م .

- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن احمد الازهري الهروي (ت٣٧٠هـ) ، تح : محمد عوض مرعب، دار احياء التراث العربي ، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١م .
- الجسد والمجتمع : دراسة انثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد ، صوفية السحيري بن حتيرة ، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٨م .
- جمهرة اللغة ، لأبي بكر محمد بن الحسن الازدي (ت٣٢١هـ) ، تح : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧م .
- حفريات في الجسد المقموع ، مقاربة سوسيولوجية ثقافية ، د. مازن مرسول محمد ، مكتبة مؤمن قريش ، منشورات الاختلاف ، دار الامان ، الرباط ، ط١ ، ٢٠١٥م .
- ديوان ابن خفاجة ، تح : عبد الله سترة ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٦م .
- ديوان الأعمى التطيلي (ت ٥٢٥هـ) ، تح : د. احسان عباس ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، ط ١، ١٩٨٩م .
- ديوان الأمير أبي الربيع سلمان بن عبد الله الموحد (ت ٦٠٠ هـ) ، تح : محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، بمساهمة : المركز الجامعي للبحث العلمي ، بإشراف : معهد مولاي الحسن للبحوث المغربية ، د.ط ، د.ت .
- ديوان الجزار السرقسطي المعروف بـ(روضة المَحاسن وعمدة المُحاسن) وفصول من كتابه (بادرة العصر وفائدة المصر) ، صنعه: أبو عبد الله محمد ابن مطروح السرقسطي (ت: ٦٠٦هـ) ، تح : أ.د منجد مصطفى بهجت ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، عمان – الاردن ، ط١، ٢٠٠٨م .
- ديوان الحكم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الدّاني (٤٦٠هـ– ٥٢٩هـ) ، جمع وتحقيق وتقديم : محمد المرزوقي ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، د.ط ، د.ت .
- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي، اعتنى بنشره : عبد القادر محداد ، بيروت ، لبنان ، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م .
- سوسيولوجيا الجسد ، المفاهيم والإشكالات من الحداثة إلى العولمة ، د. عبد الغني عماد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٦م .

- شعر أبي علي بن كسرى المالقي (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ) ، جمع وتقديم : د. سليمان القرشي ، مجلة الذخائر ، بيروت – لبنان ، العددان ١١ – ١٢ ، ١٤٣٢هـ – ٢٠٠٢م .
- شعر صفوان بن إدريس المرسي (– ٥٩٨هـ) ، صنعه وحققه : د. احمد حاجم الربيعي ، مجلة كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، العدد الاول ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١ م .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبي نصر اسماعيل الجواهري الفارابي (ت٣٩٣هـ) ، تح : احمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ط٤ ، ١٩٨٧م .
- علم النفس الاجتماعي – وليم و. لامبرت ، و ولاس إ . لامبرت ، ترجمة : الدكتورة سلوى الملا ، مراجعة : الدكتور محمد عثمان نجاتي ، دار الشروق ، القاهرة – مصر ، ط٢ ، ١٩٩٣م .
- كتاب العين ، لأبي عبد الرحمن الخليل الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ)، تح : د. مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، بيروت – لبنان ، د.ط ، د.ت .
- لسان العرب ، لابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الانصاري الرويفعى الإفريقي (ت: ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ .
- لغة الجسدِ النفسيةِ ، جوزيف ميسنجر، ترجمة : محمد عبد الكريم إبراهيم ، دار علاء الدين، دمشق – سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٧م .
- لغة الجسد في أشعار الصعاليك ، تجليات النفس واثرها في الصورة ، د. غيداء قادرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سلسلة الدراسات (١)، ٢٠١٣م .
- لغة الجسد في الشعر العربي قراءة أدبية بلاغية نقدية ، د. محمد رفعت أحمد زنجير – بحث محكم نشر في مجلة التاريخ العربي ، العدد ٢٩ شتاء ٢٠٠٤، الرباط – المغرب .
- لغة الجسد في القرآن الكريم ، أعداد : اسامة جميل عبد الغني ، رسالة ماجستير ، بأشراف : د. عودة عبد الله ، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس – فلسطين ، ٢٠١٠م .

- المرجع الأكيد في لغة الجسد ، آلان وباربارا بييز ، مكتبة جرير، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ٢٠٠٨م .
- مسند الامام أحمد بن حنبل ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، تح: شعيب الأرناؤوط و عادل مرشد وآخرين، بأشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأبي العباس احمد الفيومي الحموي (ت: ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ط ، د.ت .
- معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، لأبي عبيد عبد الله البكري الاندلسي (ت٤٨٧هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ،١٤٠٣هـ .
- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، راجعه واعتنى به : د. درويش الجويويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ٢٠٠٢م .
- وصف الجسد في الشعر الجاهلي ، د. ناصر ظاهري ، دار الخليج للصحافة والنشر ، عمّان – الاردن ، ط ٢ ، ٢٠١٧ م .